سر
المجوهرات المسروقة

مغامرات أرسين لوبين

سر
المجوهرات المسروقة

الكاتب الفرنسي المعروف
موريس لبلان

ترجمة
يوسف أبو الحجاج

مؤلفا هذه الرواية

ولد بيير بوالو في باريس سنة 1906م، وتلقى دروسه في مدرسة التجارة، والتحق بأعمال شتى لكي يكسب قوت يومه. وحصل على جائزة المغامرة في سنة 1936م بروايته «لوحة باخوس» وهي جائزة تمنح عن أحسن رواية من روايات المغامرة تظهر خلال كل سنة. وكرس بيير بوالو حياته بعد ذلك في كتابه القصص البوليسية ونال فيها شهرة كبيرة. وفي سنة 1950م انضم إلى توماس نارسيجال.

ولد توماس نارسيجال في مدينة روسفور على ساحل البحر سنة 1908م، وبعد أن حصل على شهادته الجامعية عمل أستاذًا للآداب والفلسفة ثم كتب قصصًا بوليسية مقلدًا أجاثا كريستي وآرثر كونان دوبل وموريس لبلان. ونشر عدة روايات وحصل في سنة 1948م على نفس الجائزة التي حصل عليها بيير بوالو بروايته المشهورة «الموت في السلم» وانضم إلى بوالو في سنة 1950م.

ونشر بوالو ونارسيجال نحو عشرين رواية قدمت كلها في السينما ومن بينها رواية «العرق البارد» وقد أخرجها هيتشيكوك في السينما

بعنوان «دوار» وترجمتها إلى اللغة العربية باسم «الكابوس» ونفدت فور صدورها. وهما يشتركان الآن في الكتابة للسينما والإذاعة والتليفزيون.

وهما شديدا الإعجاب بأرسين لوبين منذ حداثتهما، ولهذا عقدا النية على إصدار مجموعة جديدة لبطل موريس لبلان الشهير، وسر قصر بنجل التي نقدمها اليوم أولى هذه الروايات، وقد نالت جائزة النق ية بوليسية ظهرت في سنة 1974م.

قصر الأميرة النائمة

عرف راوول دابنيال وهو على قمة المرتفع المتر الأسطح الداكنة لبيوت يونرفيل فكفت يده عن توترها فوق عجلة القيادة. كان الريف يترامى أمامه في هدوء.

ورأى على يمينه، خلال بعض الانفراجات محرك سيارته ذات الأربعين حصانا... أربع ساعات وهو يطوي الأرض منذ أن غادر باريس، انفجرت أثناءها إحدى عجلاته. وما هي إلا لحظة حتى امتلأت شوارع البلدة الهادئة بالضجيج، وانعطفت السيارة إلي ممر جانبي وراحت تتأرجح فوق أرض صلبة. واطفأ رأوول مصابيحه وقطع أداة الاشتعال وانطلق بضعة أمتار في طريق تحفة الأشجار ثم أوقف سيارته.

وتخلص في حركات سريعة من نظارته وقلنسوته ووشاحه ثم هبط إلى الأرض وهو يقول: آه... لا ريب أنني في حالة يرثى لها.

ومس ياقته وشد جاكتته وتثاءب. وكان القمر هلالا يلقي بنوره

الباهت على النباتات والأعشاب. وعاد راوول يقول:

– والآن، إلى الفصل الأول.

وانطلق في درب يمتد عبر رابية طباشيرية يقوم على قمتها هيكل كلما امتد نهر السين أمامه، براقا يكاد الضباب يكسوه. وفي أعلى الطريق، في الساحل المواجه، بضعة أنوار متراقصة تشير إلى مدينة تانكارفيل، وكان ميناء هونفلور يقع هناك، خلف البرج المتهدم. وراح راوول يرتقي الطريق في غير جهد أو مشقة، وبلغ سور القصر الذي يكاد ينهار وتسلل إلى فناء داخلي وأشعل قداحته مرتين. وظهر في جوف الظلام الذي يكسو أسفل البرج نور خافت أضاء مرتين– وانتظر راوول ولم يلبث أن ظهر بجواره شبح يقول:

– أهذا أنت أيها الزعيم؟

– بلحمه وشحمه.

– كان يجب أن تأتي مساء أمس.

– أخرتني بعض المشاغل... مبارزة وإفطار في سفارة إنجلترا.. وتنظيف السيارة وتشحيمها... ضرورات النبالة يا عزيزي.

أمسك رأوول بذراع صاحبه وقال في صوت صارم:

– وتملكك الخوف أثناء ذلك أيها الأحمق! .. قلت لنفسك إن الزعيم يتردد وإنه يجد المسألة أشد خطورة مما يظن وأنه تراجع..

أعترف أن ذلك ما كان ليضيرك.. يا لك من شجاع!

– أؤكد لك أيها الزعيم...

– طبعا، طبعا يا صغيري برونو.. أنت لم ترتعد قط لحظة واحدة.. لم يخطر لك أبدًا أن تقول لنفسك إن الزعيم يتمادى، وإن البوليس سوف يلقي القبض عليه ذات يوم وعندئذ تنتهي أيامنا في زنزانة ضيقة رطبة.

وضحك ضحكة فتية رنانة سرت عدواها إلى برونو فابتسم بدوره وقد أخجلته تلك الطاقة العجيبة التي تنبعث من راوول دابنياك وتمتم يقول: هذا صحيح.. أحيانا يتسرب الشك إلى قلبي.

أطبقت يد راوول على ذراعه كفخ من الصلب وقال:

– إنني أمنعك من الشك.. حتى إذا اختفيت.. يومًا أو شهرًا أو سنة.. فمهما يحدث فسوف أكون هنا بعد ذلك.. هل تسمع؟.. سوف أكون بجوارك.. لا يمكن أن يقع لك شيء.. هيا، تقدم يا صغيري وقم بواجبات صاحب البيت.. تقدمني يا مولاي.

امتثل برونو وقد غلبته لهجة رأوول الساخرة ومضى نحو آخر الفناء وهو يقول: احترس من الباب أيها الزعيم.. يجب أن تخفض رأسك. والآن، أمامنا إحدى وتسعون درجة.

وأضاء مصباحًا كهربيًّا وأرسل شعاعه نحو الدرجات الحجرية القديمة. وقال رأوول:

– آه.. إن المكان جميل.. وإن كان بسيطًا بعض الشيء. وارتقى الدرجات في خفة ورشاقة أمام برونو الذي تسارعت أنفاسه.

– تقريرك الآن يا صغيري. كم رجلا بالقصر؟

– ثلاثة.. وأحدهم يبدو من جدًّا.. لعله الحارس أو كبير الخدم.

– والآخران.

– في عنفوان الشباب.. صاحب القصر وسائقه.

– ومن غيرهم؟

– لا تتعجلني هكذا أيها الزعيم. لا أدري مم صنعت ساقاك، فإنني لم أعد أستطيع أن أتبعك.. هناك الطاهية، وهي بين الأربعين والخمسين من العمر، وطفلتان.. أعني فتاة وصبية.. الأولى في السابعة عشرة من عمرها، والثانية في الثانية عشرة تقريبا.

– أهما أختان؟ .. ابنتا صاحب القصر؟

– أوه، كلا، كلا طبعا.. الفتاة، نعم.. أما الصبية فأعتقد أنها قريبة للعجوز لأنها تقضي كل وقتها معه.

– وزوجة صاحب القصر؟

– ليست هناك زوجة.. أظن أنه أرمل.

– وأين يرقد الجميع؟

– في الطابق الأول. صاحب القصر والفتاة في الجناح الأوسط.

والسائق والطاهية، وهما زوجان على ما أعتقد، في الجناح الأيسر.. أما العجوز والصبية ففي كوخ صغير منعزل.

قال رأوول وهو يضع قدمه في غرفة واسعة ذات سقف يكاد ينهار: حسنًا، سوف أفعل منك شيئًا.

وقال برونو مازحًا: وهذا هو مقر قيادتي العامة.

وأزاح الأغطية الملقاة فوق الأرض وبقايا وجبة من الطعام، وقال وهو يفخم في صوته كما يفعل المرشد: والآن إلى الاستكشاف.

أخذ رأوول المصباح الكهربي من يده وأطفاه وهو يقول: مهلا يا صغيري.. لا أنوار في غير مناسباتها.. هل معك المنظار الصغير؟

– ها هو.

وبدا رأوول دابنياك الاستكشاف، وكان قصر يوفرفيل يقع على يمينه، وتبين على الفور هيئته الضخمة وأسطحه المعقدة التي ينعكس عليها ضوء القمر ويجعلها تبدو بلون الفضة. وألقى نظرة طويلة عبر المنظار ثم قال يسأل:

– وما الذي يلمع هناك، على يسار الباب الحديدي؟

أجاب برونو: إنها البئر.. هناك بئر في ثخانة الجدار، ولا ريب أنك ترى الدلو فوق الحلقة.

– وهل هناك كلاب؟

– بولدوج واحد يرافق الفتاة دائمًا.
– أيطلقونه أثناء الليل؟
– كلا.
– هل أنت واثق؟
– ما كنت إلا لأراه. أؤكد لك أنه يبيت في البيت.
ولأن صوته بطريقة تكاد لا تلحظ فقال رأوول:
– آه.. أرى أنك ما زلت خائفًا.. ما الذي تخشاه؟
– لا شيء. غاية ما في الأمر أنني أوثر أن نفرغ الليلة.. عندما يدور بذهني أننا قد نضطر لإعادة الكرة.
– يا لك من جبان. لو أنني تركتك تفعل فإنك لتستولي على أي شيء كيفما اتفق. ودون أن تفكر في الاختيار.. تجمع الفضيات والمجوهرات ثم تبادر بالفرار كأي لص عادي. عجبًا!.. ولكن من تظنني؟.. إنني من هواة جمع التحف والنفائس.. ومنذ ثلاثة أسابيع وأنا أدرس هذه العملية وأرسم الخطط وأضع النقاط الأخيرة.. بل إنني ذهبت إلى وزارة الفنون وتحريت كل شيء. وقد علمت في الوزارة أن هناك بعض الشبهات حول صحة بعض اللوحات.. فلوحة ناتييه مزيفة، ولا ريب في ذلك. والمكتب البديع الممهور بتوقيع برسييه فونتيه ما هو إلا تقليد متقن، فقد وقع في يدي تقرير الخبير، وهو تقرير دقيق مرفق به رسم

مفصل لأن الدولة أوشكت أن تشتري القصر.. هل تريد أن أخبرك أين توجد فترينة النياشين والميداليات؟.. في آخر المعرض.. ومجموعة الأختام؟.. في وسط القاعة، أمام لوحتي فراجونار ولاتور. هكذا يجب أن يعمل كل من يتذوق الفن ويهوي جمع التحف والنفائس.

وعبر وجه رأوول المائل نحو وجه برونو عن جرأة هادئة تشوبها السخرية، وأحاط رأوول كتفي الشاب بذراعه وقال يخاطبه:

– اعلم يا صغيري أن أرسين لوبين يختار وينتقي وأنه لا يرضى ببضاعة لا تباع كما يفعل أصحاب الملايين الأمريكيون.. إنني أتفقد المكان أولًا ثم آخذ ما يروق لي فيما بعد.

وكان يبتسم بهدوء وهو شديد الثقة من نفسه بحيث إن برونو هتف يقول: حسنًا... هيا بنا أيها الزعيم.

– ما زال أمامنا متسع من الوقت يا صغيري.. إذا آثرت الحياة الأخرى، وإذا أردت أن تكون الشاب الوسيم الذي يدفع عربة الأرملة الثرية ويجمع التبرعات في قداس الكنيسة سان هوبير فأنت وشأنك.

– كلا أيها الزعيم.. إنما كنت أعني...

– عندما تواتي الفرصة شابًّا مثلك لكي يكون جنتل مانًا حقيقيًّا فله الحق في أن يتردد.

– أؤكد لك إنني لا أتردد.

وعندئذ تمتم رأوول في قوة مكبوتة غمرت برونو كفيض من السعادة فقال: إذا كان الأمر كذلك فهلم بنا.

وهبطا درجات السلم مسرعين واجتازا ضربا من الأرض نبت فيها نوع من العشب النادر جففته الشمس. وكانت السحب تمر من وقت لآخر وتغطيها بظلالها.

– أظن أن العجوز هو الذي يغلق الباب الحديدي ويضع المزاليج؟

– أجل.

– وأظنه يقوم بعمله هذا بكل دقة؟

– هو؟ .. إنه لكفيل بأن يغلق الباب مرتين إذا استطاع، وصدقني إنني قضيت وقتًا طويلًا في مراقبته.

– وهل يفد إلى القصر أناس كثيرون؟

– لا أحد فيما عدا بعض الموردين.

– وأهل القصر؟ .. هل يخرجون؟

– سيد القصر، نعم. فهو يخرج بانتظام في سيارته مع سائقه. أما الآخرون فلا يتحركون تقريبًا.

تابع الرجلان طريقهما في صمت. وكان برونو يفحص رأوول خلسة. وكان هذا الأخير يرتدي ثياب المدينة ويضع زهرة في عروة جاكتته ويبدو أنه خرج في التو من أحد فنادق حي سان جرمان. وكانت

هذه النزهة الليلية برفقة ذلك الشاب المتأنق شيئًا غريبًا ومذهلًا وعجيبًا بحيث إن برونو مر بيديه أمام عينيه. كلا. كان المنظر حقيقيًّا وكان قصر يونرفيل هناك، أمامهما، وقد تناثرت فوق أسطحة المداخن ودوارات الهواء وواقيات الصواعق. وقال رأوول:

– إنه يرجع إلى عصر النهضة، وهو قصر جميل، ولكني لا أحب كثيرًا هذا الجناح الذي تدل هيئته على أنه بني في عصر لويس الثالث عشر.

وتقدما بمحاذاة الجدار الذي يفضي إلى الباب الحديدي العمومي واكتشفا البئر، وهي بئر قديمة نحتت في ثخانة السور بحيث كان يمكن استخدامها من الخارج ومن الداخل على السواء. وكان هناك سياج حديدي يفصلها إلى جزئين، ولم يتردد رأوول ووثب فوق حلقة البئر ولمس قمة السياج بإصبعه، ثم وبخفة عجيبة ارتفع في صمت واختفى في الناحية الأخرى، وصفير خافت نبه برونو أن الطريق خال، وما هي إلا لحظات حتى كان الشاب قد اجتاز العقبة بدوره.

وهمس رأوول: ألم تجد مشقة ما؟

– كلا أيها الزعيم.

واستطاعا عندئذ أن يتبينا بصورة أفضل موضع المباني، ففي آخر فناء فسيح يقوم القصر نفسه وعلى جانبيه جناحان يمتدان حتى الباب الحديد كضلعي مثلث. أما ساحة الشرف ببلاطها الكبير اللامع فكانت

أشبه بمستنقع هادئ. وترك رأوول كنف الحائط وخرج إلى النور فهمس برونو: سوف يروننا.

– وبعد؟.. ليس لدينا نوايا سيئة.. إننا قدمنا لمشاهدة مجموعة التحف كما يفعل السياح.

ومضى رأوول نحو باب القصر ولكن برونو أسرع يقول: من الأوفق أن ندخل عن طريق المطبخ.

– عن طريق المطبخ؟. كالبدال أو صبي الجزار؟.. تأدب يا بني... ارفع رأسك يا برونو. لا تنس مركزك ولا مركزي، فأنت مع دابنياك.

وضحك تلك الضحكة الفتية التي طالما أثارت حيرة سامعيه. وفرقع أصابعه في غير اكتراث وارتقى الدرجات الأمامية للقصر. ولمست يداه القفل لحظة عابرة ثم قال: ليس هناك مانع.

وفي اللحظة التالية كانا في الردهة، وأعاد رأوول طفاشته إلى جيبه وهمس قائلًا: أمسك بكتفي.

وفي بطء تقدما الواحد بعد الآخر في الظلام في وسط صمت مطبق. بل إنهما لم يسمعا عمل الديدان الغامض في خشب الجدران القديم. كان كل شيء في البيت ينام نومًا عميقًا ورطبًا بعض الشيء. وتوقف رأوول ومال فوق أذن برونو وقال: احترس... هذا هو السلم.

ووضع قدمه على أول درجة وأحس بأنها تلين قليلًا، وفجأة، ومن

مسافة بدت له بعيدة جدًّا ارتفع رنين جرس راح يدوي في إصرار. وقال رأوول: اللعنة!.. جرس إنذار!

وراحا يصغيان وقد تجمدا في مكانهما. واستمر الجرس، فوق، يدوي دويه المكتوم، أشبه برنين جرس منبه صغير.

وتمتم برونو متعلثما: فلننصرف!

- اسكت أيها الغبي.

راح ذهن رأوول يعمل في سرعة مدهشة. وأخذ يفكر وقد توترت أعصابه وضم قبضته في حين استمر الجرس في دويه الصارخ عبر غرف القصر الصامتة.

وعاد برونو يقول: فلننصرف.

قال رأوول في لهجة جافة: أتريد أن تهرب كالأرنب؟

- ولكن.. إنهم سوف يأتون.

- لن يأتوا فورًا فهم أكثر منك خوفًا وذعرًا. وقبل أن يستقر منهم العزم.

وأضاء رأوول مصباحه الكهربي وسلط شعاعه نحو باب الردهة، وقال: انتظر على عتبة الباب.. عتبة الباب، مفهوم؟ لا أحد يستطيع أن يراك من فوق. وعند أول سحابة، عليك أن تتسلل بطول الحائط حتى البئر حيث تقوم بالمراقبة. وإذا رأيت أي شيء غير عادي فقلد ما تريد من الأصوات ثم بادر بالفرار.

- صوت البومة؟
- إذا شئت. وسألحق بك عند البرج.
- وأنت أيها الزعيم؟.. والكلب؟
- سأتكفل به.. امض وأسرع.

وفي بضع خطوات سريعة بلغ برونو آخر الردهة. وأطفأ رأوول مصباحه. وكان جرس الإنذار لا يزال يصلصل في إصرار وبدون توقف. ولكن لم يتحرك شيء ولم ينبح الكلب. ولو أن أحدًا ما سار في الطابق الأول لطقطقت الأرضية الخشبية القديمة دون ريب.

وعلى كل حال لو أن سيد القصر صحا من نومه فجأة لأضاء النور. كان يجب منطقيًّا أن يحدث شيء ما.. أو أي صوت.. وأن لا يستمر هذا الصمت المخيف الذي يزيد في رهبته صليل الجرس المستمر.

ارتقى رأوول السلم وهو يتوخى الحذر الشديد. أين الكلب؟ ألن يهجم عليه فجأة وينشب أظافره في عنقه؟ وأي فخ منصوب في غرف الطابق الأول التي يملأها الجرس برنينه المتتابع الذي لا ينقطع؟.. وجفف رأوول وجهه. كان من الجنون أن يستمر في صعوده، ومع ذلك فقد استمر، محدودب الكتفين شيئًا ما متوقعًا في كل لحظة أن يتلقى رصاصة تنفجر في وجهه. والتقت يداه بباب ثم بآخر. كانت البسطة كبيرة ممتدة والاستكشاف الأعمى لا ينتهي.

وتمتم رأوول يحدث نفسه: هيا يا ماركيز، واجه العدو والابتسامة على شفتيك.

وأضاء مصباحه الكهربي الأصم من جديد، وردد نوره في كل الأرجاء. كانت البسطة مقفرة. وشيئًا فشيئًا استولى عليه غضب بارد. كان الجرس لا يزال يرن في رأسه وفي أعصابه. وسار وهو يضرب الأرض بكعبيه نحو باب الغرفة التي ينبعث منها رنين الجرس وفتحه وكشف نور المصباح فراشا ضخما وامتد حتى الوسادة وتوقف على وجه جامد شاحب، وتمتم رأوول:

– يا للشيطان!.. إن العميل ليس وسيمًا.

كان الرجل أصلع، له حاجبان كثيفان شقراوان يكادان يخفيان عينيه المطبقتين ويكسبانه سمة غريبة قاسية. وتقدم رأوول منه وقال:

– هل تسمح أيها الأمير؟

ورفع الغطاء، كاشفًا عن صدر شعر، وفجأة انفجر ضاحكًا حتى كاد أن يختنق، وتحرر من توتر أعصابه مرة واحدة وتمتم يقول وهو يضغط على مفتاح الأباجورة التي بجوار الفراش:

– التمس معذرتك، واسمح لي أن أقدم نفسي: رأوول دابنياك، من نبلاء جسكونيا. ألا تعرفه؟ وأرسين لوبين، هل تعرفه؟ جرس الإنذار هذا مزعج، أليس كذلك؟ لعلنا نستطيع إسكاته.. كلا، كلا. لا تزعج

نفسك أيها الصديق العزيز. أن إجراس الإنذار ليست بغريبة علي. أرأيت؟ هذا أفضل. إذن فأنت ترفض أن تستيقظ لكي لا تضايق هذا العزيز لوبين.

وإذ توقف رنين الجرس دوى صوته هو في أرجاء الغرفة بطريقة غريبة. وأسرع فخافت من صوته وهو يقول:

– ولكن إذا كنا لا نصحو فلماذا هذا الجرس؟ هذا أمر لا يقره المنطق.

ورفع جفن النائم بإصبعه ثم قال: مخدر.. فهمت الآن. أنت إذن تعاني من أشجان خاصة وتريد أن تنسى كل شيء.

كان يهزل ولكن عينيه كانتا تتفحصان الغرفة وتلاحظان كل نقطة: جلود الدب المفروشة على الأرض وقطع الأثاث الثمينة ومقياس الوقت المصنوع من الذهب الخالص فوق الطاولة، وبجواره محفظة ضخمة من الجلد الروسي. وفتح المحفظة ثم قال:

– كلا.. كلا.. لن استغل ضيافتك لي. ثم أن النقود لم تعد تهمني.

ووجد بطاقات زيارة ورسائل وأوراق باسم هوبير فيرانج. وقال وهو ينظر إلى الرجل الضخم ذي الحاجبين الشرسين:

– هذا جميل يا هوبير.. أن آل هوبير هم في العادة قوم سلسوا القيادة معتدلوا المزاج.

وأعاد المحفظة مكانها وفتح درج الطاقة واستطرد يقول وهو يخرج

مسدسا ضخمًا من طراز سميث وويسون له ماسورة قصيرة:

– وهم يرحبون بالضيوف ومرحون. ولكنهم متكتمون في بعض الأحيان، ومن الأوفق أن تصادقهم بدلًا من أن تعاديهم... ولكن ماذا تريد أن تفعل بهذه اللعبة بحق الشيطان يا صاحبي العزيز؟ إن موسم الصيد قد انتهى، وغليوم[1] لم يعلن علينا الحرب بعد.

وأعاد المسدس في الدرج وتحول إلى الباب المفتوح وأصغى لحظة.

– ألم تسمع شيئًا يا هوبير؟.. خيل لي... وأطفأ الأباجورة.. أكان برونو هو الذي أطلق هذه الصرخة؟ وداخله إحساس شرس قاس ساطع بأنه ليس وحده في القصر وإن زائرًا آخر يتنقل في مكان ما في ظلمات الطرقات والغرف.. شخص حرص قبل أن يستكشف القصر على أن يخدر الجميع، ابتداء من سيد القصر حتى الخدم. وهمس يقول محدثًا نفسه: لا تتحرك.

وأسرع إلى البسطة وهو صامت كالشبح، وانحنى فوق الدرابزون الحجري، ولكنه لم يسمع غير الدم الذي يدوي في عروقه. وأضاء مصباحه الكهربي من جديد وفتح باب غرفة وأخرى وما كان يفعل حتى ارتد إلى الوراء على الفور.. الكلب! .. البولدوج!..

ولكن الحيوان كان ممددًا على صدره وخطمه بين قائمتيه، ولم يبد أية حركة. وانحنى رأوول وحك رأسه، بين الأذنين.

– كلب ذكي.. لقد عرف السيد..

كانت الحدقة ثابتة ومتسعة تحت الجفن المحتقن شيئا ما.. فلب المخدر الكلب وبقى في وضع المترصد، كاشفًا عن أسنانه. واعتدل رأوول وسلط أشعة مصباحه على الجدران والسجادة والطاولة والفراش، وللمرة الثانية وقف مشدوها، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كأنه لا يصدق ما يراه. وتقدم ثلاث خطوات ثم توقف مفتونًا، فإن شعاع المصباح المائل إلى الزرقة أضاء وجهًا جميلًا يجثم في جوف عش من الشعر الأشقر.. ما عمرها؟.. سبعة عشر عامًا، استنادًا إلى قول برونو؟.. ولكن من يراها لا يعطيها أكثر من خمسة عشر عامًا على الأكثر. الأهداب السمراء مسدلة بطريقة ساحرة وخيل لرأوول أنها سترتفع فجأة وأن عينين واسعتين بنفسجيتين ستتفتحان تنظران إليه في مودة ورفق. ذراع من ذراعيها البيضاوين أفلت وتدلى بطول الغطاء. وبقي رأوول منحنيًا فوق الفراش، مسحورًا ومفتونًا. وتمتم يقول أخيرًا:

– ماذا دهاك يا لوبين.. أفي سنك هذا؟

كان يحاول أن يمزح. بيد أن صوته كان يرتجف لفرط ما يعانيه من انفعال. هل يمكن بعد كل تلك المغامرات وكل تلك اللقاءات؟..

– ما هذا يا لوبين؟.. أنت ترى تمامًا أنها فتاة صغيرة.

وانبعث من الوسادة عطر جميل. لم يتأمل رأوول أبدًا مثل هذا

الجمال ومثل هذا الشباب الساحر الغض. ومد يده في حياء وهو يقول: أيتها الفتاة المجهولة.. أنت جميلة.. لكن أود في هذه اللحظة أن أطوف في أحلامك.

وأردف يقول على الفور: إنك لخبيث يا ماركيز.. أيمكنك أن تتصابى بشعرك الذي وخطه المشيب والغضون التي بدأت تظهر في ركني عينيك؟..

واستولى عليه الاضطراب ولم يستطع أن يحول بصره عن الوجه النضر. ولم يتمالك نفسه أخيرًا فانحنى قائلًا:

– على ركبتيك يا لوبين، أمام البراءة والفضيلة. الحسناء والوحش.

وأخذ يد الفتاة ورفعها إلى شفتيه ثم أطفأ مصباحه وارتد في هدوء وخرج من الغرفة.

– لو التقى بالوحش الذي سمح لنفسه...

لأنه لم يكن هناك أي مجال للشك، فهناك رجل آخر في القصر.. رجل يهوى جمع التحف هو أيضًا. ولكن كيف تمكن من خداع يقظة برونو؟ آه، البئر طبعا! إن في مقدور أي شخص أن يلقي أثناء مروره مخدرًا في الدلو. ولا ريب أن اللص في المعرض الآن يختار وينتقي في هدوء.

اجتاز رأوول الطرقة التي تمتد حتى البسطة وتؤدي إلى الجناح

الأيمن، وكان الضوء الباهت الذي يتسرب من خلال النوافذ المرتفعة يكفي لكي يوجه خطواته. من أين دخل الرجل الغريب؟ لا ريب عن طريق قبو أو عن طريق المطبخ وسلم آخر مادام جرس الإنذار لم يرسل صليله، ولا ريب أنه يعرف كل مسالك القصر.

وكان المعرض يقع بعد الطرقة مباشرة، وأضاء رأوول الباب ذا المصراعين وأدار الأكرة فجأة، وأصدر الباب صريرًا بغيضًا. ودار نور المصباح في أرجاء المعرض، لكن لم يكن هناك أحد.

طاف رأوول بالقاعة الفسيحة، ونسى على الفور قلقه واضطرابه، فقد كان المعرض حافلًا بالروائع والنفائس. وتمتم يقول:

– ولكن لابد من ساعات لتقييم كل هذا.. فهذه اللوحة لمانتينا، وهذه للأرجيليير.. ولكن هذه اللوحة التي تمثل القديس جان بابتيست والممهورة. بتوقيع دي فنسي تبدو لي مزيفة.. وإني لأفهم الآن شكوك وزارة الفنون.

وسلط ضوء مصباحه على منضدة صغيرة وانعكس الضوء على تحف ثمينة:

– آه.. ها هي تحفة القربان المشهورة.. وصندوق المخلفات الذي يرجع عهده إلى القرن الخامس عشر.

وفاض به إحساسه بعظمته، فقد دبر كل شيء وهو في مسكنه

بباريس، دون أن يرى شيئًا، وإنما مكتفيًا بمعاينة الكتالوجات والبطاقات، بيد أنه أصبح الآن سيد هذه النفائس. مجرد حركة واحدة منه وتنتقل إلى مصائر جديدة جديرة بها.

وأجفل فجأة.. لا يمكن أن يكون هناك أي خطأ هذه المرة.. كانت صرخة البومة حقا. وأرهف أذنيه وسمع للمرة الثانية الصرخة في وضوح. لا ريب أن برونو، وهو في مكمنه، قد رأى الزائر الخفي.

ألصق رأوول وجهه بأقرب نافذة، وأجفل وهو يرى المنظر المذهل الذي يطالعه من خلال الشرائح الخشبية لمصراعي النافذة. رأى ثلاثة أشباح تجتاز الفناء في طريقها إلى الباب الحديدي، وكان يبدو أنهم قادمون من الجناح الأيسر للقصر ويتحركون بسرعة. وكان أحدهم يمشي في المقدمة، أما الآخران فكانا يحملا حملًا ثقيلًا له هيئة رجل ملفوف في غطاء. وأحس رأوول بالعرق يتصبب من كل كيانه. اللعنة. اللعنة! بينما كان واقفًا يتأمل مجموعة النفائس كان الآخرون يختطفون.

وأسرع إلى الطرقة ودفع باب غرفة هوبير فيرانج. كان سيد القصر يرقد في هدوء. الفتاة إذن؟.. كلا. كانت راقدة هي الأخرى وذراعها لا يزال على حالته.. من إذن؟.. خادم؟

وهبط السلم مسرعًا واجتاز الردهة. كان الرجال الثلاثة يتسللون محتمين بظل الجدار بجوار الباب الحديدي. وأغلق رأوول الباب

خلفه.. ومرت سحابة لفت الفناء بظلمة مواتية، فاندفع يجري.

أما الرجال الثلاثة فبدلًا من أن يخرجوا إلى الطريق راحوا يسيرون بمحاذاة الباب الحديدي، وتجاوزوا الجناح الأيمن ودلفوا إلى البستان، وغابوا عن بصر رأوول بعد ذلك مباشرة، ولكن كان من السهل عليه الاهتداء إلى مكانهم من وقع خطواتهم. وتجاوز زاوية القصر بدوره وتوجه نحو الأجراس والأشجار. ورأى المجهولين الغامضين وهم يغادرون القصر من باب صغير. واجتاز خلفهم دربًا وتغلغل في دغل صغير يمتد حتى نهر السين. ولم تكن هناك طرقات ممهدة في تلك الناحية.. لم يكن هناك غير النهر.

– عسى ألا يهربوا في قارب.

ازدادت الأرض انحدارًا، وفجأة انتهى الوغل، وبدأت بعدها بقعة منحدرة من المستحيل عبورها دون أن ينكشف أمره.

وفكر رأوول: إنهم سيعبرون البحر.

وسمع صوت ارتطام مجداف بأرضية قارب ثم صرير سلسلة، ورأى على سطح الماء البراق تموجات دوامة، ولم يلبث القارب أن ابتعد عن الشاطئ. ورأى رجلًا يجدف بمحاذاة الشاطئ، ضخم الجسم، له رأس مربعة متداخلة بين كتفيه وآخر جالسًا في المقدمة، وكان قصيرًا ومشوهًا، أما الثالث فكان منحنيًا في آخر القارب.

تنهد رأوول في ارتياح، فإن القارب لم يدخل عرض البحر وإنما كان يتقدم بطول الساحل. وما كانت رؤيته لتثير دهشة أحد في تلك الساعة فإن الصيادين الشرفاء يخرجون في وقت مبكر في شهر يونية ويمضون لأماكنهم المفضلة قبل الفجر.

وتقدم رأوول في طريق ضيق يتعرج خلال صخور الشاطئ. وكان القارب يختفي من وقت لآخر خلف باقة من الخضرة أو مرتفع من الأرض، ولكنه كان لا يلبث أن يظهر من جديد، كتلة داكنة تظهر في وضوح فوق حصيرة النهر الفضية. وكان الطريق يزداد ارتفاعًا ما بين لحظة وأخرى، وكانت المسافة تزداد بين رأوول والقارب.. وقال:

– لعلي أخطأت.. ربما كان يجب أن أتدخل دون انتظار.

وهناك، كان القارب يقترب من ثلاث شجرات من أشجار الصفصاف الضخمة، اختفى خلفها شيئًا فشيئًا. وجرى رأوول ثم وقف.

– آه.. ولكن ماذا يفعلون؟ ..

ذلك أن القارب اختفى نهائيًا ولم يظهر.

وتقدم بضع خطوات وهو بادي الحيرة ثم توقف من جديد. وفجأة كتم نفسة، فقد برز القارب من خلف الأشجار في بطء. ولكنه كان شاغرًا.. شاغرًا تماما، ولم يلبث أن توقف وقد شده حبل المرساة.

والرجال؟.. أين ذهبوا؟ لم يكن في مقدورهم الهبوط لأن الشاطئ

كان عبارة عن صخور ملساء، وجذور الأشجار نفسها تكمن في قلب التل الذي يهيمن على السين من عل. وترك رأوول الدرب وتقدم حتى الهضبة التي تنحدر فيها الأرض حتى النهر. ومن مكانه تبين في وضوح من خلال الأغصان بريق الماء الشاحب، وتمتم يقول:

– ما معنى هذا؟.. إنه لأشبه بعمل من أعمال الشيطان!

وحتى على افتراض أن أصحابنا الثلاثة الغامضين أفلحوا في الهبوط إلى الأرض فأين ذهبوا بعد ذلك؟ إن الجرف المنحدر يمتد نحو مائة متر، وهو عار وأملس كاليد يكاد يلمع تحت نور القمر. ولكن ماذا حدث للجسد؟.. لو أنهم ألقوه في النهر فما كان رأوول إلا ليسمع صوت ارتطامه بالماء. إذن؟.. لا يمكن أن يكون الرجال الثلاثة وضحيتهم إلا تحت الأشجار الثلاثة، ومع ذلك فقد كان رأوول واثقًا أن أغصانها لا تخفي أحدًا. وسار في بطء بجوار الهضبة مترددًا لا يدري ماذا يفعل، فإنه إذا حاول أن يهبط حتى النهر فإنه يغامر بأن يعرض نفسه لهدف أكيد، ثم، ما الجدوى في أن يتأمل عن كثب هذا القارب الفارغ.

وجلس على صخرة كبيرة ملساء، على حافة الهضبة. لم يكن القارب ليبعد بأكثر من خمسين مترًا، وكان يرى في وضوح انعكاس سلسلته وبركة صغيرة من الماء بين الألواح.

وتجمد دمه فجأة، فقد ارتفع أنين بجواره.. صرخة مكتومة.. فأدار

رأسه ولكنه لم ير أحدًا. كانت الهضبة خاوية، على بعد امتداد البصر... لعلها الرياح؟.. كلا. لم تكن هناك نسمة واحدة.

– ماذا دهاك يا ماركيز؟.. إنك أصبحت تتخيل أشياء.

ولكن الصرخة عادت من جديد، وكانت هذه المرة طويلة تدل على أن صاحبها يتألم كل الألم وحافلة بالقلق، ووثب رأوول على قدميه.. هل هذا ممكن؟ لم يكن بالهضبة أحد على امتداد البصر. لم تصدر الصرخة من الأشجار، بل كانت أقرب بكثير. بدا أنها تصدر من جوف الأرض.. صرخة رجل يتعذب، تبعتها تمتمة أصوات. وكان الانطباع قويا بحيث إن رأوول دار حول نفسه مرة واحدة، وأحس بخوف مستتر لم يستطع التغلب عليه. وثارت أعصابه. كان قد واجه خلال حياته الحافلة بالمغامرات أخطارًا جمة، ولكن لعله لم يجد نفسه أبدًا في مثل هذا الموقف الشديد الغرابة.

وسمع صاحب الصوت يقول متضرعا: كفى. كفى. النجدة. كان الصوت يبدو بعيدًا، في جوف مسافة بعيدة عن الواقع، كصوت في آخر خط تليفوني ويبدو قريبا في نفس الوقت. كان يتولد في الهواء بطريقة غامضة.

وصاح الصوت: النجدة.. كفى.. كفى.

امتقع لون رأوول وضم قبضتيه ودار حول نفسه والعرق يتصبب من جبينه، وارتفعت من جوف الأرض حشرجة رهيبة أعقبها على الفور

صوت خشن قاس يقول: تكلم.. عجل وإلا..

وعندئذ ومض الضوء في ذهن رأوول وقال: آه ... كيف لم أفطن إلى هذا؟

وانحنى فوق المنحدر وراح يمشي على أربع تقريبا، وبدأ يهبط في بطء؟

– هل حزمت أمرك؟.. ألا تريد أن تتكلم؟

– كلا.

– هيا يا جريجوار.

صرخة حيوان خرجت من مجموعة من الصخور المنخفضة، وقال رأوول: حسن... ها نحن قد وصلنا.

وأبعد بعض الأشواك بقدمه وجلس القرفصاء. كانت هناك فتحة أضاءها بمصباحه الكهربي... طبعا. آه.. هذا هو الأمر إذن... بئر التهوية... لا ريب أن هناك محجراً.

صاح الصوت متوسلا: النجدة.

– يمكنك أن تصرخ كما تشاء... كلا. لا تريد أن تتكلم؟ ... استمر يا جرايجور.

التصق رأوول بالصخور ولم يعد يفقد كلمة واحدة من الاستجواب الرهيب الذي يدور تحته. وراحت الأحداث تتكون في ذهنه في منطق ودقة أثارا جزعه وملآه رعبًا: أهل البيت مخدرون... والعدو الخفي

ينجز خطة موضوعة بكل عناية فاختطف الخادم... وبلغ القارب مدخل سرداب مهجور... الآن العذاب، وغدا جثة تتعفن وتتكفل بها الجرذان.

وتأوه الصوت من جديد: كفى.. كفى... سأتكلم.

أدخل رأوول رأسه في الفتحة والتصق بالتل، وراح يتنفس هواء يشوبه العفن، ولكن كانت هناك رائحة أخرى لم يلبث أن عرفها وهو يقشعر... رائحة لحم يحترق.

- عجل وإلا انتهى أمرك.

- جرعة من الماء.

- إنني أحذرك... سوف نبدأ من جديد... هيا ياجرايجور

ومن جديد الصرخة المدوية المريعة. وراح رأوول يسب ويلعن وانغرزت أظافره في كفيه. وساد صمت، تحت، ثم عاد الصوت الخشن يقول: أظن أنه أغمى عليه... جرايجور... الزمزمية.

ارتد رأوول إلى الخلف. لم يفت الأوان بعد، فبقليل من الحظ واستنادًا إلى عنصر المفاجأة.. رجل ضد ثلاثة.. كان ذلك يكون أمرا يسيرا... وراح يثب فوق المنحدر، ولم يكن دافعه إلى ذلك انتزاع السجين من عذابه فحسب ولكنه أدرك أن قصر يونرفيل لا شك يضم سرا غير تحفه ونفائسه... سرا عظيما... وقد صمم أن يعرف هذا السر... وراح يجري الآن فوق أرض صخرية تشرف على نهر السين ويكرر في

صوت خافت كما لو أن لإرادته ما يكفي من القوة لكي يشق طريقه في جوف الأرض حتى يصل إلى مخ المحتضر: قاوم يا صديقي... قاوم خمس دقائق فحسب وسوف أنقذك... تجلد فأنا لوبين.... قادم إليك.

كانت الأشجار الثلاثة الآن تحت قدميه تقريبا فتعلق بحافة الجرف وأحس بساقيه تلمسان أعلى الأغصان وفتح أصابعه وهوى خلال الأوراق ثم ارتفع على قدميه وتعلق لحظة وجيزة أبصر فيها حرفا ضيقا موصلا وسلسلة القارب، وعاد فهوى من جديد وفي رفق فوق أرض لينة. ولم يشعر بأية دهشة وهو يرى قضبانا صدئه لعربه صغيرة من تلك العربات التي تستخدم في المناجم، ولا ريب أن الزوارق كانت ترسو في هذه الناحية فيما سبق وتوسق حمولتها مباشرة. ولم يكن أمامه الآن إلا أن يستكشف المكان.

كانت أول مبادئ الحرص تنصحه بألا يستخدم مصباحه الكهربي فراح يتعثر فوق القضبان، تلح عليه نفس الفكرة وتؤرقه "عساه ألا يتكلم". وتوقف لكي يصغى. لا شيء غير صمت بغيض لا يطاق... وخطر له عندئذ أن الأصوات في جوف الأرض تنتشر بطريقة غريبة. ولعله لا يزال بعيداً عن الأشقياء الثلاثة. مهما يكن فقد قضي الأمر وسيصل بعد فوات الأوان. وتعثر في عمود معدني وأوشك أن يقع فأضاء مصباحه لمجرد لحظة خاطفة... يا للكارثة... يا للكارثة! ... كان

أمامه طريق متفرع، وكان من المستحيل أن يعرف. وانعطف إلى اليمين، وعلى الفور، وفي جوف الليل ظهر ضوء أحمر أخذ يكبر. وتقدم رأوول في بطء أكثر وضمن تفريعة ثانية. ولم يلبث أن انضم الطريق الأيسر بعد دورة إلى الطريق الذي سبق أن اتخذه. واخترقت القضبان قاعة كبيرة دائرية تشع منها انعكاسات صادرة من كومة من الحجر تنير أرجاءها في غموض. اختفى الجلادون، ولا ريب أنهم غادروا السرداب عبر الطريق الأيسر، ومروا برأوول على غير علم منهم، ولكنهم لم يحملوا ضحيتهم معهم. كان الرجل راقدا بجوار النار وقدماه العاريتان نحو الجمر. وسلط رأوول نور مصباحه عليه. كان رجلا مسنا، أبيض اللحية، خشنا، قوي الجسم، له وجه نبيل وكان لا يزال يتقلص من جراء التعذيب. ورفعه رأوول وأبعده عن النار.

– أنت لم تمت يا صاحبي؟ ... لن تموت الآن بعد أن لقيت من أجلك كل هذه المشقة... سوف تعود إلى الحياة برفق وتتحدث معي.

وألقى وهو يتكلم بأشعة مصباحه على قدمي الرجل المسكين، وارتسمت على وجهه تكشيرة، ولمس بأصبعه اللحم المتورم وقال:

– آه، ليس الأمر بالسوء كما ظننت.

وتلوى الرجل وسرت قشعريرة في بدنه وتأوه قائلا:

– الرحمة... إنني قلت كل شيء.

وراح ينطق بكلمات غير مفهومة، واضطر رأوول أن يجثو بجواره وأن يدني بأذنه من الشفتين الشاحبتين وقال:

– تكلم ماذا تقول؟ القديس جان؟ ماذا فعل هذا القديس؟ إيه.... القديس جان يخلف يعقوب؟ .... حسن... هذا واضح تماما... وبعد؟.... دراتنيان؟.... نعم، إنني اسمع جيدا.... دارتنيان... هدئ من روعك يا جدي... دراتينان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف... أهذا ما تريد أن تقول؟. انتظر.... سأكرر .... القديس جان يخلف يعقوب.... دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف..... هذا له معناه طبعا. هل أنت متأكد أنه ليس هناك أي شيء آخر؟ ... شيء آخر يلقي قليلا من الضوء رغم كل شيء.

وأمسك الشيخ من كتفيه وعيناه تلمعان بالانفعال وهزه في رفق وقال: جهد آخر يا جدي... أفرغ ما في جعبتك فتنجو من الموت. رفع الشيخ نفسه في جهد أخير وتوترت شفتاه وصاح رأوول؟ ... ماذا؟ .... الدم.... هل قلت الدم؟

خفض الشيخ حاجبيه وعاد فهوى على الأرض، وتشبث رأوول به وقد امتقع وجهه لفرط ما يشعر به من غضب مكبوت، وقال:

– تكلم... عجل وتكلم... ولتمت بعد ذلك. دم من؟ ... هيا يا صاحبي، تشبث بالحياة... ما هذا الدم الذي تتكلم عنه؟

ولكن الشيخ كف عن الحركة .... لن يبوح بالكلمة تلك الكلمة التي لا ريب أنها مفتاح كل الباقي... فقد رشده ووجهه الناصع البياض كالشمع أصبح بشعا وبغيضا. وزمجر رأوول:

– يا للمسكين... ومع ذلك فقد بدأ يتكلم... لو أنه لم يفقد الرشد لاعترف بكل شيء في ثلاث ثوان.

وجفف جبين الرجل المجهول وكان ينفصد بالعرق.

ووقف بجوار الحجر الذي يتصاعد منه الدخان في آخر السرداب المظلم على أتم راحته كما لو كان في النادي الذي يختلف إليه عادة وراح يفحص الموقف بتلك الجرأة العجيبة وبتلك الدقة المدهشة التي تتيح له السيطرة على أشد المواقف صعوبة. وابتسم فجأة كالطفل وقال:

– حسنا يا جدي. سوف تنصرف الآن.. سأحملك معي إلى عيادتي.. وأعدك أنك سوف تعدو كالأرنب قبل خمسة عشر يوما. ورفع الشيخ فوق ظهره، وتمتم يقول: أنت ثقيل يا جدي.. ثقيل جدا.

وعاد من حيث أتى وهو يرزح تحت الحمل الثقيل الذي يحمله. ووقف لحظة عند مدخل السرداب ليسترد نفسه. لم يكن القارب مكانه تحت الأشجار لا ريب أن الرجال الثلاثة حسبوا أن ضحيتهم ماتت .... وزمجر رأوول وجمع قواه وعاد فحمل حمله من جديد.

– ما زال حيا... إنه مبنى بالجير والرمل... يا له من جبل.

وأخذ يمشي من جديد، وبدأ النهار يطلع. ولكن الريف كان لا يزال مقفرا ولا ريب أن برونو فوق البرج يفحص بمنظاره كل ثنايا الطريق، وسوف يسارع إلى النجدة بمجرد أن يراهما. وبدأت ساقا رأوول تترنحان لفرط التعب وفكر: إنني أخطئ إذ أرهق نفسي هكذا، فإنني لم أعد في العشرين كما كنت.

وكانت المسافة بين المحجر والسيارة أكثر من كيلو مترين، وقطع رأوول ساعة في عبورها، ولحسن الحظ كان برونو... برونو الأمين المخلص هناك. وترك رأوول يتهاوى فوق العشب في حين بادره برونو يقول: لقد استبد بي القلق ورحت أتساءل....

– حسنا... اهتم به .... هل تعرفه؟

قال برونو مضطربا: إنه الشيخ الذي في القصر.... أعني الحارس.

– قل لي أظنك درست الطب قبل أن يسوء بك الحال؟

– نعم، ولكنني فشلت... بل إن فشلي هذا كان السبب في.....

– أعرف... احمل الشيخ إلى العربة.

– هل ستمضي به إلى المستشفى؟

– ماذا تقول؟. إنني سأحتفظ به. إن الرجل ثمين جدا... هل رأيت قدمه. أتظن أنهم يختطفون رجلا ويعذبونه هكذا لأسباب تافهة.

– وماذا ستفعل به.

– أنا؟.. لا شيء... أنت الذي ستفعل منه شيئا. ستعنى به وتشفيه في أسرع وقت... وسوف نرى بعد ذلك... مفهوم يا دكتور؟

– ولكن، أين تريد أن ....

– لا تشغل بالك بهذا، فإن لي علاقاتي في الحي .... ثم إنك تثير ضجري بأسئلتك هذه... هل فهمت؟ إلى الأمام إذن.

ونهض، نشيطا، مستجما، يزخر بالقوة والحياة، وبوثبة واحدة أخذ مكانه أمام عجلة القيادة وهو يقول: اجلس في المؤخرة واحرص على صاحبنا جيدا فإنني على عجل من أمري.

وبعد لحظات كانا يخترقان هونفلير، وكانت لاتزال هاجعة. وكان رأوول يدندن ويدق بأصابعه على عجلة القيادة منغما لحنا.... القديس جان.... يعقوب.... دارتنيان... القديس جان.

وانعطفت السيارة في طريق تروفيل وهي تنتزع الحصى لفرط سرعتها... القديس جان... يعقوب... القديس جان الذي يخلف يعقوب... ودارتنيان الذي يفوز.... وفكر "لعمري إن هذا العجوز إن هو إلا نوسترادا موسى... من إذن ذلك المغفل الذي قال إن الحياة لا تساوى أن يعشيها المرء... ولكن الدم. الدم.. يا إلهي.... دم من؟" وكانت السياج التي تحف بجانبي الطريق تبدو كأنها تبتعد فجأة أثناء مرور السيارة بينها ثم تعود فتضيق من جديد «سوف يتكلم.... لابد أن

يتكلم... سيخبرني أنا .... وعندما أعرف السر....».

وتوقف رأوول أمام بيت صغير في قلب الريف، وكان هناك سور أبيض أمام حديقة جميلة. كانت نوافذ البيت مغلقة، فهبط ودفع باب السور وطرق الباب... مرة. ثم مرتين... وبدا الانفعال يتملكه.

– حسناً... ألا تفتحين.

وانفتحت نافذة في الطابق الأول وارتفع صوت نسائي مهزوز يقول: من هناك؟

– أنا البابا.

يا إلهي! .... أهذا أنت؟ ..... أنت يا صغيري!

وما هي إلا لحظة حتى فتحت المرأة الباب... وقال رأوول:

– هذا أنا يا فيكتوار... أتيت لأحييك وأنا في طريقي.

نظرت فيكتوار إليه وجلة. وأشار رأوول إلى برونو فتقدم هذا الأخير وهو يحمل الشيخ الذي كان لا يزال سادرا في إغمائه وقال رأوول: أتيتك بضيف.

احتجت فيكتوار قائلة: آه.، كلا. كلا. لا أريد. كفاني ما لقيت من ألاعيبك ودسائسك. انتهى كل ذلك. هل تسمع؟ لقد تقدم العمر الآن.

– تقدم بك العمر؟.. أنت؟ هراء. إن من يراك لا يعطيك أكثر من سبعين سنة. لن ترفضي إسداء خدمة صغيرة لي يا عزيزتي فيكتوار...

للمرة الأخيرة.

ودفع برونو إلى الردهة ثم تقدمه إلى غرفة صغيرة تؤدي إلى الحقول من الناحية الأخرى للبيت.

– قضبان بالنوافذ وقفل بالباب .... حسن. لا يدري المرء ما قد يحدث، فنحن فوق الفراش. ستبقى هنا يا برونو وستعني به. وستمضي فيكتوار إلى المدينة لشراء الأدوية. أنتما مسؤولان عنه أمامي، ولا كلمة و[illegible] وإلا انتزعت لسانكما. هناك غرفة أخرى في الطابق الأ[illegible] ذاكرتي لا تخونني. ستمضي فيكتوار بك إليها، فأنت بحاجة إلى النوم.

قالت فيكتوار: ولكنك مرهق أنت أيضا يا صغيري. إن سحنتك تثير الخوف... يجب أن تنام أنت أيضا.

أمسك رأوول مقعدا وجلس مفرشحا بجوار الباب وقال:

– أنام... هل تمزحين؟ ألا تفهمين يا عزيزتي؟ ... سر يونرفيل!

صفحة من التاريخ

رغم علاقاتي الطيبة الودية مع أرسين لوبين والثقة الكبيرة التي أولاني بها في شتى المناسبات، فلا تزال في حياته بعض الأسرار التي لم أفلح بعد في أن أجلو غوامضها.

وعلى الخصوص قدرته العجيبة ليس في التنكر فحسب وإنما في تقمص أية شخصية إلى حد أنه لا يمكن أن يخطر لأي أحد أنه هو لوبين نفسه، فهل تراه عمل، كما يزعم، مع فربجولي أم أنه تلقى دروسه، كما يؤكد، في الكونسرفاتوار، وهل صحيح أن ميليس لقنه أسرار السحرة والحواة؟ .... عندما ألقى على مغامرنا القومي أسئلة محددة في هذا الصدد يكتفي بأن يبتسم أو بأن يرد كما فعل ذات يوم مع القاضي فورميري إذ قال: إنني أشخاص كثيرون يا سيدي القاضي، ولست على علم كاف بسيرة أشخاص العديدين.

ولكن الشيء المؤكد هو أن أرنستين، خادمة الأستاذ فرينيزو، موثق

العقود بمدينة هونفلير، أدخلت في ذلك الصباح في غرفة الصالون رجلا قصير القامة يرتدي ثيابا بالية، حلو الشمائل، طلب منها أن تنبئ سيدها بأن الكونت هونوريه دي بريساك يريد أن يقابله، وقرصها في خدها في رفق بحيث من المستحيل أن تغضب. وأحس الأستاذ فرينيزو بدوره من نحو الكونت دي بريساك، حالما رآه، بميل كبير، ميل تحول إلى ود أكبر عندما عرف أن زائره يشاركه حبه الشديد للتاريخ.

بدأ الكونت يقول بعد أن أخذ مجلسه في أفضل مقاعد المكتب:

– علمت من ابن عم لي أن قصر يونرفيل معروض للبيع ولا أخفى عليك أنه يسعدني أن أشتريه.

وضحك ضحكة قصيرة ظريفة لو أنه أول من يسخر من نزواته واستطرد: وليس ذلك لبنائه المدهش أو لمعرضه الرائع فحسب وإنما، وأقول على الخصوص، لأسباب عاطفية بحتة... آه، نعم. إنني رجل محافظ وأعرف أن كثيرا من الذكريات، وأغلبها ذكريات مجيدة، ترتبط باسم يونرفيل.

أسرع موثق العقود يقول وقد أسعده أن يجد مستمعا يستطيع أمامه أن يرضى العنان لهوسه البريء دون أن يتعرض لأن يقاطعه ويقول في فتور «وبهذه المناسبة أرجوك أن....».

– وهي ذكريات بعضها غير بعيد جدا عننا... هل تعلم أن ملكنا

المسكين لويس فيليب أقام بضعة أيام في القصر عند هربه إلى إنجلترا في ذلك الشتاء المحزن من عام 1848م؟

قال الكونت: أظن أنني قرأت في الواقع شيئا في هذا الصدد، ولكن هناك قصصا متناقضة تدور حول هذا الحادث المؤسف.... والحق يا أستاذ أنك إنما تؤجج رغبتي في الحصول.....

– ولكن معلوماتك خاطئة، فإن قصر يونرفيل ليس معروضا للبيع.

– حقا؟ هذا خبر سيىء في الواقع .... ويؤسفني سماعه بالتأكيد.

– وأنا حزين جدا من أجلك، فأنا الذي قمت بإجراءات البيع منذ ثلاث سنوات. وقد كان عميلي مهندس يدعى جاك فيرانج. رجل شهم وذكي جداً ونشيط جدا. بل أقول إنه كان جم النشاط. ألم يعقد العزم على إدخال تجديدات في أرجاء القصر.

رفع الكونت ذراعيه كمن أضناه الأمر، وعقب المحامي يقول:

– نعم. إن رأيي كرأيك تماما في هذا الصدد يا سيدي الكونت، فإن الجيل الجديد لا يهتم في بعض الحالات بالحفاظ على الآثار ولا يحجم عن تدميرها. وقد بدأ جاك فيرانج بإدخال الكهرباء... وهذا أمر طبيعي فيجب أن يساير الإنسان وقته. ولكنه أراد هدم الجناح الأيمن وتوسيع فناء الشرف وإدخال الماء كما لو أن البئر لم يكن فيها الكفاية. وأراد أيضا استبدال الإسطبلات بجراج .... وفي هذه النقطة بالذات لم

أكن لأوافقه.

صاح هونوريه دي بريساك في عنف: آه، كلا. ولكن ألا يمكن أن أقوم بزيارة هذا السيد فيرانج؟

– كلا للأسف... فقد مات، وبطريقة مأساوية.

وضغط الأستاذ فرينيزو على جرس فأقبلت أرنستين، وقال المحامي: هل لك أن تشرفني وتتذوق شراب التوت الذي أعده بنفسي يا سيدي الكونت؟ إنه شراب ممتاز. وسوف ترى ذلك بنفسك.

أحضري لي قدحين يا أرنستين، إذا سمحت.

وأدنى مقعده من مقعد زائره واستطرد:

– لقي جاك فيرانج وزوجته حتفهما بعد شهرين تقريبا من إقامتهما في القصر في حادث سخيف. كانا يقومان بنزهة بحرية على مقربة من هنا وغرق الزورق. إن القصر يجلب النحس، فإن صاحبيه السابقين ماتا هما الآخران بطريقة محزنة. لقي الأول حتفه في حادث صيد. أطلق رجل مجهول لم يعرفه أحد حتى اليوم رصاصة أصابت منه مقتلا ووقع الثاني من فوق الصخور... وكل هذا يثير الحزن.

– لنعد إلى آل فيرانج.

حسنا، إنهما تركا فتاة قاصرة تدعى لوسيل.

قال الكونت: وإذن؟

– انتظر. كان لجاك فيرامج أخوان، هوبير، الأخ الأكبر وقد أصبح القيم على اليتيمة، وهو الذي يسكن القصر الآن.

ورفع المحامي قدحه وراحا يشربان في بطء وهما يتذوقان الشراب.

وعاد الكونت يقول:

– هذا أمر مؤسف، ولكنني مضطر الآن إلى العدول عن مشروعي... إن لم تصدقني على كل حال إنني لست آسفا على هذا الإجراء الذي قمت به لأنني أظن أنك لن ترفض أن تطلعني طبعا على الظروف التي لجأ فيها الملك إلى.....

قال الأستاذ فرينيزو: طبعا، خصوصا وأنها نقطة تاريخية أهتم بها كثيرا، ولن أعيد إلى ذاكرتك يا سيدي الكونت أسباب ثورة سنة 1848م.

تنهد هونوربه دي بريساك وقال: لا داعي لذلك طبعا.

وأردف يقول في تفكير: لقد حدثني المرحوم أبي كثيرا عن الثورة وعن تنازل الملك عن الحكم، وعن هربه هو وزوجته إلى تريانون ثم إلى درو....

– وهل قال لك المرحوم أبوك أن الملك نزع شعره المستعار وارتدى سترة عادية من الصوف وأخفى عينيه خلف نظارة سميكة حتى لا يعرفه أحد، وأنه على الرغم من تنكره هذا عرفه أحد الحراس

الوطنيين في مدينة أفرو وكاد أن يبلغ عنه؟

قال الكونت ولم يكن يفكر في إخفاء فضوله الشديد: هذه نقاط لم أكن أعرفها.

قال موثق العقود في ارتياح: وأنت لست وحدك. بعد ليلة طويلة من القلق وصل الملك فيليب إلى قصر يونرفيل حيث انضمت الملكة إليه بعد بضع ساعات. وكان المكان مثاليا للمراقبة، فمن ناحية، الريف حيث يمكن للجيش أن يظهر في أية لحظة، ومن الناحية الأخرى، البحر، وهو الوسيلة الوحيدة الباقية للنجاة. والكونت يونرفيل: وهو الشخص الوحيد الباقي من آل يونرفيل، كان رجلا متقدما في العمر ولكن رئيس خدمه، ويدعى أيفاريست كان شابا، وكان شديد الإخلاص مثله للملكية. وكانت الحكومة المؤقتة قد أصدرت أوامر مشددة لمراقبة الساحل. وكان أيفاريست هو الذي فكر في أن يكتري سفينة صغيرة في تورفيل، وقد تقاضى صاحب السفينة، ويدعى هولو، ثلاثة آلاف فرنك لكي ينقل الملك إلى الساحل الإنجليزي، وكان أيفاريست هو أيضا الذي مضى بالملك في إحدى العربات إلى تروفيل.

تمتم الكونت، وكان قد انحنى إلى الإمام رغما عنه وراح يلتهم موثق العقود بعينيه: هذا أمر مثير.

استطرد الأستاذ فرينيزو: والبقية أكثر إثارة، فها هو الملك في

تروفيل، وكل شيء جاهز، ومع ذلك فلم يرحل، بل على العكس، عاد في ليلة 2 مارس إلى قصر يونرفيل. فلماذا؟ .... زعم البعض أن البحر هائجا وزعم الآخرون أن صاحب السفينة خشي أن يبلغ عنه أحد وفر في آخر لحظة، وهذه الأسباب تبدو لي غير مقنعة، فهناك شيء غامض لا تفسير له في تصرف الملك العجوز المطارد الذي لم يكن هناك من هم يشغله غير نجاته هو شخصيا. وأنت تعرف، لان هذا الأمر أصبح معروفا من الجميع، أن لويس فيليب أبحر أخيرا في تلك الليلة، وأعني بها ليلة 2 مارس إلى هونفلير على السفينة «لبكورييه» التي وضعها قنصل إنجلترا في فرنسا تحت تصرفه في ميناء الهافر. ومع ذلك فقد كان البحر هائجا، ومن ناحية أخرى، كان المدعي العام في بون أوريمير وجنوده يراقبون الموانئ والطرق مراقبة دقيقة، فلماذا أصر الملك، وكان موجود بطريقة ما في تروفيل، على العودة فجأة متحديا بهذه الصورة خطرا جسيما لم يكن هناك أي مبرر له. من رأيي أن قرار الهارب ليس له غير تفسير واحد وهي ضرورة ماسة ومفاجئة لكي يتواجد في القصر، إما لكي يأخذون شيئا كان قد أودعه في عهدة أصدقائه المخلصين وإما على العكس لأنه أراد أن يكلفهم بمهمة سرية أردد في أن يعهد بها إليهم حتى آخر لحظة.

وأردف الأستاذ فرينيزو يقول: ولكن ليس في مقدوري أنا أن أجلو هذا السر التاريخي الصغير.

قال الكونت: ولكنك توصلت إلى نتائج رائعة. اسمح لي أن أهنئك على هذا التبحر.

3 -سر قصر المجوهرات

احتج المحامي في تواضع: أوه .... لا داعي للمبالغة في مقدرتي وجدارتي، فإنني وجدت أغلب هذه المعلومات في المذكرات التي تركها الكونت يونرفيل الشهم. إن الرجل المسكين لم يعش كثيرا بعد مليكه فمات في سنة 1851م، ويمكنك أن ترى قبره في مقبرة يونرفيل الصغيرة بجوار قبور أجداده.

وبدا كأن الكونت بريساك قد صغر فجأة، وكان جالسا في مقعده مستقيما جدا وينقر بأصابعه في عصبية على مستوى مقعده وهو فريسة انفعال غريب، وتمتم يقول:

- رجل عاصر الثورة والإمبراطورية والملكية... لا ريب أن هذه المذكرات ذات فائدة كبرى.

- كلا. إذا أردت الحقيقة... فإن أسلوبها قبل كل شيء ممل جدا، وهي عبارة عن كراسات لا تقل عن ستمائة صفحة، مكتوبة بخط دقيق يتعذر قراءته في أغلب الأحيان، ولكي تفرغ من قراءتها فلابد لك من صبر لا أملك أنا منه شيئا. لابد أن يكون لديك متسع من الوقت لذلك، فإنها تضم أشياء لا يمكن هضمها وتفاصيل تافهة. ثم إن كل ما فيها

عرضة للطعن، فإن الكونت كان رجلا متعصبا، ومن ناحية أخرى فإن الأحداث التي ذكرتها لك لا ريب أخلت بعقله شيئا ما لأن الجزء الأخير من المذكرات يضم فقرات مبهمة تماما.

سأله الكونت في اهتمام: هل يمكن أن تضرب لي مثلا؟

– لا أستطيع أن أتذكر، ولكن لا شيء يمنعك أن تطالع هذه المذكرات بنفسك، لأن جاك فيرانج أهداها إلى شركة نورماندیا للتاريخ والآثار.

– وهل تظن أنه قد يوجد في القصر أوراق أخرى أو مستندات أخرى تتكلم عن الحقبة التي تكلمنا عنها الآن؟

– كلا لا أظن ذلك. ولكن ليكن معلوما أنني لم أفحص كل الكتب الموجودة في المكتبة. لعلها تضم خمسة عشر أو عشرين ألفا كتاب ولم تدرج في فهرس أبدا. كان جاك فيرانج ينوي أن يبوبها وأن يعد لها فهرسا... وكل ما أستطيع أن أؤكده لك هو أن المذكرات مازالت، رغم التحفظات التي تقال عنها، المصدر الوحيد الموثوق به فيما يتعلق بأحداث فبراير ومارس سنة 1848م.

– سوف أتحسر على قصر يونرفيل ما حييت. ولكنني سأحتفظ بأحسن ذكرى عن زيارتي لهونفلير.

وشيعه المحامي حتى باب الشارع. وعلى العتبة تبادلا بعض المجاملات مرة أخرى ثم انصرف الكونت وهو محني الظهر قليلاً

ويكاد يجر قدميه، ولكنه ما أن انعطف إلى الشارع الجانبي حتى نصب قامته وأسرع في خطاه. وكان في انتظاره سيارة بجوار الطريق فاستقلها وهو يتنهد قائلا: عجوز أحمق... ولكن شرابه لذيذ وممتاز... لو أستطيع على الأقل أن أعرف دم من.

***

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب في ذلك اليوم عندما هبط رأوول دابنياك من سيارته أمام مسكنه ببوليفار بيربر، وكان قد تخلص أثناء الطريق من تنكره في هيئة الكونت دي بريساك واستعاد هيئته كشاب رياضي أنيق. لم يكن قد كف عن التفكير في اعترافات الأستاذ فرينيزو، وأحس بقلق شديد. لقد كانت هذه الزيارة لمكتب موثق العقود ضربة من العبقرية، وكان ملهما إذا امتدح شغف الرجل العجوز بالتاريخ.

لم يكن هناك طبعا ما يثبت أن هناك علاقة بين مختطف الأمس الخفي وبين الأحداث التاريخية التي كان القصر مسرحا لها قبل ذلك بستة وستين عاما، ولم يكن في الكلمات الغامضة التي نطق بها الشيخ العجوز الذي عذبوه شيئا يبدو أنه يمت إلى إقامة الملك لويس فيليب الوجيزة في قصر يونرفيل، ومع ذلك فإن غريزة لوبين العجيبة أنذرته بأنه يجب أن يوجه أبحاثه إلى هذه الناحية. ثم إنه لم يكن يملك في تلك اللحظة أية تفاصيل أخرى من شأنها أن توجهه إلى طريق آخر، وكان لابد

له لكي يبدأ أبحاثه من الحصول بأية طريقة على المذكرات المشهورة التي قرأها الموثق بتلك العجالة، وراح يغلي من اللهفة. ولكنه كان يعلم جيداً أنه لا يجب أن يتعجل أبدا في سبيل الحصول على ما يريد، ولهذا جلس في هدوء أمام مكتبه وأخذ كل وقته لكي يشعل سيجارة ثم ضغط على زر مستتر في درج بالمكتب انفتح على أثره درج صغير خفي أخرج منه إضباره ضخمة تحتوي على نماذج لخطوط جميع المعاصرين المشهورين. كان في هذه الإضبارة آلاف منها، ابتداء من خط ليلى أمور، الممثلة المشهورة إلى خط فالنجلاى، الرئيس السابق للوزارة وعضو مجلس النواب، مرورا بخطوط المفتش العام جانيمار وبرجسون والنائب دوبريك وقداسة البابا بول العاشر، وطالما امتدح الناس طريقة لوبين العجيبة في التصرف، غير أن أحسن انتصاراته وأكثرها غرابة إنما يدين بها إلى طريقته التي لا تخيب... كان لوبين يعرف كيف يعمل قبل أي شيء آخر.

أخرج بطاقة باسم جابرييل تابارو، عضو المجمع، وفحصها لحظة في تركيز عميق. وبنظرة واحدة عرف أدق الخصائص المميزة لخط الرجل... الحروف المتباعدة بعضها عن بعض والأخرى المتشابكة، ثم أخذ ورقة بيضاء وراح يتمرن بضع دقائق في تقليد الخط الرفيع الذي يدل على عصبية صاحبه، ثم فتح دليل التليفون وبحث عن عنوان شركة

نورماندیا للتاريخ والآثار ثم بدأ يكتب مرة واحدة وفي سهولة تثير جزع أي خبير في الخطوط.

إلى السيد جاستون سيروس

سكرتير شركة نورماندیا....

زميلي العزيز، أجيز لنفسي بأن أوصيك خيرا بصديقي رأوول دابنياك، وهو شاب جغرافي ينتظره مستقبل زاهر. وقد تخصص في تاريخ موطنك الصغير ويعد بحثا عن الفن النورماندي. وأنا على يقين من أنك تهتم اهتماما كبيرا بهذا الفن وأرجو أن تسهل له أبحاثه وأن تتقبل أيها الزميل العزيز.

وفرغ رأوول من خطابه وهو يبتسم ووقعه. سوف يحصل على المذكرات إذن، وسوف يفحصها على مهل ويتحقق منها صفحة صفحة. ولعله يخرج منها بلا طائل ولكن لعله يكتشف شيئا وبالذات ما غاب عن بحث الأستاذ فرينيزو.

وكانت شركة نورماندیا للتاريخ والآثار تقع في مبني قديم وهادئ بشارع بونابرت. وقال رأوول يخاطب البواب:

- مستر سيرول؟

أجابه البواب دون أن يرفع عينيه: الطابق الأول:

وقال رأوول يحدث نفسه وهو يصعد درجات السلم: أرجو ألا

يلقى على أسئلة كثيرة عن الفن النورماندي وإلا فإن صديقي تاباور المشهور يخاطر بأن يفقده اعتباره.

كان بالباب بطاقة زيارة عادية مثبتة بأربعة دبابيس. وضغط رأوول على الجرس. ما شكل هذا السيرول؟ ... تخيله رأوول رجلا قصير شحيما يغطي رأسه بقلنسوة سوداء ويضع قطناً في أذنيه. ومرت فترة طويلة ولم يظهر سكرتير شركة نورماندیا.. ولكن هل سمع أولا؟.... وضغط رأوول الجرس مرة أخرى بدون نتيجة.

– هذا أمر مؤسف... خطاب تقديم محرر بهذا الأسلوب الجميل... لا بأس. سأخدم نفسي بنفسي، ومهما يكن فقد اعتدت على ذلك.

وما كان يدفع الباب حتى انفتح، ودخل ورأى غرفة المكتب على يمين الردهة، وتقدم بضع خطوات ووجد نفسه في غرفة واسعة بجدرانها رفوف حتى السقف مملوءة بالكتب. وفي وسط الغرفة تمتد منضدة كبيرة مكسوة بسجادة طويلة تتدلى حتى الأرض، وفوقها صناديق بطاقات وسجلات، قال: المكان متواضع.. من المؤكد أن الثقافة لا تفني أصحابها، ما علينا.

وصعد فوق سلم موضوع بالذات أمام القسم الذي يحمل حرف الياء. وما كاد يلقى نظرة حتى رأى الفراغ. كانت مذكرات الكونت يونرفيل غير موجودة.

لم يتمالك رأوول من أن يكتم صيحة غضب... ماذا؟ .... هل جرأ أحد؟ .... ومع ذلك فإن موثق العقود أكد أن المذكرات لا تضم شيئا ذا فائدة تذكر... لو أن أمين المكتبة لم يقع اختياره على هذه اللحظة بالذات لكي يتغيب... وهبط رأوول من السلم وأجفل بشدة، ثم اقترب من المنضدة في بطء ورفع السجادة.... ظهرت أمامه قدمان ينتعلان خفا... لم يذهب أمين المكتبة بعيدا.

لم يضيع رأوول لحظة واحدة، فإن بعضهم قد يأتي في أية لحظة، فجثا وأزاح السجادة. كان الرجل تحت المنضدة، تماما كما تخيله. وكل ما هناك أن قلنسوته وقعت بجواره، وكان قميصه ملوثا بالدم، وكانت الرصاصة قد أحدثت ثقبا رفيعا عند مستوى القلب وكانت الجثة باردة.

عاد رأوول فأسدل السجادة. لم يكن هناك أي شيء في أن القاتل قتل سيرول لكي يسرق المذكرات. كان ذلك واضحا وضوح الشمس. وكان سجل الاستعارات مفتوحا فوق المنضدة. وجرى رأوول بعينيه على عامود الكتب التي خرجت.

مذكرات الكونت يونرفيل: 6 يونية، البارون جالسيران.

وألقى نظرة على عامود الكتب المعادة:

مذكرات الكونت يونرفيل 14 يونية، البارون جالسيران.

كان يجب أن تكون المذكرات موجودة إذن.

كان رأوول يعرف الخطر الشديد الذي يتعرض له ببقائه في المكان، ومع ذلك فقد كان عاجزا عن الحركة. أثارت هذه الجريمة حيرته، وأحس في غموض بأنه يواجه خصما قويا شديد العزم. ومر بيده على جبينه وتمتم: هذا عجيب. ولكن لعلها مجرد مصادفة. وقد أكون واهما.

وانحنى فوق السجل: 14 يونية، البارون جالسيران.

وجرى أصبعه على العامود الآخر: 6 يونية، البارون جالسيران.

وفجأة أطلق صيحة دهشة... فإن الحروف لم تكن متشابهة على الإطلاق في حين أن المفروض أن التسجيلين قد دونتهما يد واحدة، وهي يد أمين المكتبة. لم يكن هناك أي شيء في أن هو الذي حرر التسجيل الأول ولكن التسجيل الثاني، وهو تسجيل 14 يونية كان تقليدا، فقد كانت الحروف في المرة الثانية تدل على أن كاتبها كتبها وهو مضطرب، فجاء التقليد واضحا كل الوضوح.

وعندئذ دار المشهد الذي حدث أمام ذهن رأوول بدقة ووضح كاملين: الرجل. يطلق الرصاص على السكرتير ثم يخفي جثته على عجل ويدون في السجل ما يثبت أن المذكرات قد أعيدت حتى يخفي السبب الحقيقي لارتكاب الجريمة.

وهتف يقول: وأوشكت اللعبة أن تجوز على-آه.. ذلك أن صاحبنا عرف كيف يدبر أموره، ولكن من عادتي أنا الآخر أن أقلد الخطوط،

فهل فهمت يا بارون؟ أنا أيضا أفهم ما يدور حولي... تريد إذن الاحتفاظ بالمذكرات وحدك.. تخشى أن تقع بين أيد غير جديرة بها. يا لك من رجل شهم. لعلك تهوى جمع التحف أنت الآخر؟ ... إن السيد البارون يهتم بالتاريخ.. السيد البارون رجل مثقف.

امتزج الغضب والحقد والفرح في قلب رأوول، وتقلص وجهه وضم قبضته. وتنفس طويلا ثم أخذ صندوق البطاقات الذي يحتوي على عناوين المشتركين.

ج... جادوا... جافنر... جالابير... آه، ها هو جالسيران... البارون جالسيران.... 14 مكرر شارع كامباساريس، باريس.

وخرج من المكتب على طرفي قدميه واجتاز الردهة وأغلق الباب خلفه في عناية... «الأمر بيننا وحدنا الآن أيها السيد الأرستقراطي».

***

لم يخطئ رأوول، فإن بيت البارون، في آخر حديقة صغيرة، كان ينطق بالثراء، كانت الطرقة التي تفضي إلى البسطة مكسوة بالرمل الناعم. وعلى جانبيها أحواض من الورد، وعلى اليمين، خلف ستار من الشجيرات زجاج حديقة شتوية. ودق رأوول جرس الباب، وفتح له خادم له جسم ملاكم يرتدي ثياب الخدم الرسمية ويلبس في يديه زوجا من القفازات البيضاء، وأحس بصدمة، فإن هذا الجسد الضخم وهذه الرأس المربعة

سبق له أن رآها هناك، على حافة الماء، في القارب، وهكذا لم يخطئ في افتراضاته واهتدى إلى الأثر الصحيح، قال:

– أرجو أن تعطي بطاقتي للسيد البارون. أود أن أحادثه في أمر هام.

– هل السيد على موعد؟

– كلا.

– في هذه الحالة أخشى ألا يستطيع سيدي استقبالك، ثم إنه يتناول عشاءه الآن.

أمسك رأوول الخادم من طرف جاكتته وقال: وفر كلامك أيها الوغد، وامض ببطاقتي إلى سيدك، حسبك أن تقول له أنني قادم من شارع بونابرت.

– ولكن يا سيدي.

– امض.

غلب الرجل على أمره، ونطق ببضع كلمات متذمرا، ومضى نحو البيت. وتبعه رأوول في غير مبالاة، واقتطف في طريقه زهرة ثبتها في عروة جاكتته، وما هي إلا دقيقة حتى عاد الخادم وقال: أرجو أن يتفضل سيدي ويتبعني.

وتقدم أمام رأوول عبر صالون فاخر الرياش إلى غرفة طعام ينبعث منها صوت اصطفاق أطباق ثم أفسح له الطريق. وانحنى رأوول انحناءة

كبيرة... ونظر إليه البارون وشوكته في يده، كان رجلا في الثلاثين من عمره، ضخم الجسم، دموي الوجه، حليق كالممثلين، حاول أن يبدو هادئا ولكن وجهه نم عن شيء من الانفعال وقال: أعترف يا سيدي أن أصرارك يثير دهشتي خصوصا وأنني لا أدري حقا...

وهز كتفيه وتناول صدر دجاجة وأخذ رأوول مقعدا وجلس أمامه وقال: بل إنك تثير دهشتي يا عزيزي البارون... ألم تخمن سبب مجيئي... لماذا استقبلتني إذن بحق الشيطان؟

قاطعه الآخر قائلا: أرجوك.... فلتفرغ... إنك تقتحم بابي وتدخل هنا كما ... كما....

وبحث عن تشبيه وعلت وجهه تكشيرة وقال محنقا: تكلم. ماذا تريد؟

والتقت عيناه بعيني رأوول، ومرت بهما لحظة وكل منهما يحدق في الآخر، وكان البارون أول من خفض حاجبيه، وحفاظا على هدوئه عاود الأكل، وأخذ رأوول فخذ دجاجة من الطبق وهو يقول:

- هل تسمح؟ .... إنني لم أتناول شيئا طوال اليوم. سأشاركك الطعام من غير تكليف.

ولأول مرة ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه البارون وشاركه اللعبة فقال: ألبير... هات طبقا للسيد.

أسرع الخادم ذو القفاز فأحضر طبقا وملحقاته وهو يبدي احتراما

كبيرا، وعاد رأوول يقول:

– أخيراً... ويزعمون أن واجبات الضيافة أصبحت معدومة... كلا. كلا يا ألبير. لا أريد فجلا. لا أتناول الفجل إطلاقا، بسبب الكبد، قليل من النبيذ... شكرا... إنني أهنئك يا بارون، فإن طاهيك فنان... وهذه الدجاجة سمينة وشهية.

وكان البارون قد كف عن الأكل وراح ينظر رغما عنه وفي دهشة إلى الرجل الجالس أمامه والذي يبدو في تلك اللحظة أنه يفيض ظرفا وكياسة وعدم مبالاة:

– حسناً يا بارون. أأكون قد تسببت في فقدان شهيتك؟ أظن أنها ليست تلك العبارة البسيطة: «شارع بونابرت» التي أزعجتك إلى هذا الحد؟

وتأمل رأوول كأسه وشمه ثم قال: يا لهذا الأريج! ... نخب صحتك يا صديقي العزيز... ونخب نجاح مشاريعك.

بدأ البارون يقول: هلا قلت لي؟ ...

– طبعا ... اطمئن ... لقد أرسلني مسيو سيرول ...هل تعرفه.

وكان البارون يقطع كسرة من الخبز في تلك اللحظة فهز رأسه وقال: طبعا. إنه سكرتيرنا الفاضل بشركة نورماندیا للتاريخ والآثار.

– هو نفسه. حسنا. هذا السكرتير الفاضل، مسير سيرول، قد كلفني الآن بذات بأن أطالبك بكتاب ... أو بالحري بمخطوط يدوي ...

مذكرات الكونت يونرفيل. ولكن يبدو أن هذا يثير دهشتك يا بارون، ألا تصدق أن مسيو سيرول قد كلفني بهذه المهمة؟

عقد جالسيران ذراعيه وانتفخ عنقه وتمتم يقول:

– كلا، لا أصدق ذلك.

– لماذا؟

– لسبب وجيه، وهو أنني أعدت بنفسي هذه المذكرات لمسيو سيرول، وهي مذكرات تافهة على كل حال، ولم أحتفظ بها إلا بضعة أيام... ثم إن الخط رديء لم أستطع أن أفك منه إلا القليل وأسلوبها مموج... وغريب أن مسيو سيرول لا يتذكر أنني أعدتها إليه... صحيح إن السن تقدمت به.

قال رأوول موافقا: هذا صحيح.... لقد تقدمت به السن فعلا، هذا بخلاف ما حدث له...

– ماذا؟ ... هل وقع له مكروه؟

– حادث بسيط.

– حادث؟ ... أرجو ألا يكون الأمر خطيرا.

– رصاصة في صدره فحسب؛ ولكنها أصابته في مقتل، بحيث إنه ليس هو الذي أرسلني حقا وإنما شبحه، وهو شبح ظريف جدا في الواقع... خفيف الروح وعلامة... ولكنه ثرثار... ثرثار جدا... وقد قال

لي شيئا مخيفا.

وأخذ رأوول جناح دجاجة، وكان يبدو خفيف الحركة، مرحا، على شفتيه تلك الابتسامة الساخرة المعروفة عنه، وأقصى البارون طبقه وهو يقول: ولكنني لا أفهم يا سيدي....

– قال لي الشبح: عزيزي دابنياك، لم أعرف طعم الراحة في الآخرة إلا إذا علمت أن شئون الشركة منتظمة وأن مكتبتي العزيزة كاملة لا ينقص منها شيء، ولهذا أرجو أن تمضي إلى هذا البارون الطائش جالسيران وتطالبه...

قاطعه البارون قائلا: آه. إنني لا أفهم إطلاقا ما الذي ترمي إليه، وأرجوك أن تكف عن هذرك، أكرر لك إنني أعدت تلك المذكرات ثم إن تاريخ إعادته لابد أن يكون مسجلا في سجل الإعارات فإن سيرول لم يكن يفوته أبدا...

– إن التاريخ مسجل.

– إذن؟

– إنه أمر مؤسف حقا لأنه ليس مدونا بخط مسيو سيرول.

– بخط من إذن؟

– بخط قاتله طبعا.

– وهل تعرفه؟

– نعم.

– هل أنت من رجال البوليس؟

– أنا؟ ... ما هذا السؤال البغيض ... هل يبدو علي؟ ..

– هي مجرد فكرة خطرت لي.. ولكن لماذا تأتي وتذكر لي كل هذا بحق الشيطان؟ يجب أن تلجأ إلى إدارة البوليس يا صديقي العزيز.

استعاد جالسيران رباطة جأشه وراح يحرج رأوول في وقاحة، وكان هذا الأخير لا يزال يبتسم وهو يلتهم الفخذ الثاني في شهية كبيرة، وقال: حسبت أن هذه القصة ستحظى باهتمامك.

– هي تثير اهتمامي في الواقع. كنت أكن نحو سيرول تقديرا عميقا، وأعترف أن موته... وهو على الخصوص ميتة بشعة... ولكنني أقول لك مرة أخرى إنني لا أرى لماذا اخترتني أنا بالذات؟

– إذا كنت لا ترى ذلك حقا فإني أكون قد أخطأت، والتمس معذرتك يا بارون، قلت لي أن ألجأ إلى إدارة البوليس... هذه فكرة لا بأس لها وأراهنك أن نهاية المغامرة ستثير اهتمام هؤلاء السادة، فقد كان هذا الشبح ثرثار.

– وما هي الغرابة في نهاية المغامرة؟

– لا..لا..لا داعي للإصرار.

أطبق البارون قبضتيه وقال: تكلم.

–حسنا. تصور أن هذا الشبح. شبح صديقنا سيرول كشف لي عن وجود بصمة إصبع... بصمة إبهام ملوث بالدم على حافة الوراقة. وأعترف أنني ما كنت لأكتشف هذه البصمة بمفردي فإن قاتلنا، بعد أن دفع الجثة تحت المنضدة اعتمد بيده عليها بحركة آلية لكي يقف، ولكنني أتكلم، وأتكلم... مرة أخرى التمس معذرتك يا بارون وأشكرك... هذه الدجاجة...

– انتظر... إنك لم تتناول شيئا من الحلوى... ثم إنني يجب أن أعترف أنك أثرت فضولي. إن كل ما تذكره عجيب ولم أكن أتوقعه أبدا... بل إنني أجرأ فأقول إنه يخرج عن المألوف.

لك أن تجرأ وتقول ما تريد يا بارون... إن الوصف صحيح، فهو أمر خارج عن المألوف.

– وإنني أتساءل إلى أي مدى سيخرج عن المألوف.

– إلى حد أن أذكر لك اسم القاتل، إذا أردت.

– فلتقل إنني أريد.

اضطجع رأوول في مقعده إلى الخلف وانفجر ضاحكا، وكلما ضحك كلما تقلص وجه البارون جالسيران من الغضب.

وتمتم رأوول يقول: هذا غريب جدا، كلا، إن أمرك مضحك، كما لو أنك لا تعرف القاتل... إنه أنت يا بارون.... من تريد أن يكون؟

– عظيم... إنك تزعم إذن...

– كلا.

– آه. حسنا. إذن إنك لا تتمادى إلى حد الزعم؟

أمسك رأوول عن الضحك فجأة، وقال في صوت قاطع وهو يحني رأسه شيئا ما: ليس من عاداتي أن أزعم... إنني أؤكد وأقدم الدليل. إن أول خبير يأتي لمقارنة نموذج من خطك مع الحرف المزيف الموجود في سجل الإعارات سيقرر أن الخطين متطابقين.

– شريطة أن يقترح أحد القيام بمثل هذه المقارنة.

– سوف يقدم بعضهم هذا الاقتراح.

– ومن هذا؟

– أنا.

– وهل تظن أن هذا يكفي؟

– كلا.

– إذن؟

– سوف يقوم خبير آخر بمقارنة بصمة إبهامك الأيسر بالبصمة الدامية الموجودة على الوراقة.

– وأنت أيضا الذي ستقترح القيام بهذه المقارنة؟

– نعم، أنا.

– بمعنى آخر إن كل شيء يتوقف عليك، وعليك أنت وحدك. إن مسيو رأوول يريد تصريف أمور الدنيا وفق هواه.

– لعمري هو ذلك تقريبا.

وكان البارون قد انحنى بدوره، وراح كل منهما ينظر إلى الآخر من فوق المائدة متحديا، وفي بطء دعك البارون بأصابعه مفرش المائدة في حين احتقن عنقه شيئا فشيئا وأخيرا صاح يقول في صوت أجش: كم؟

– كم ماذا؟

– ثمنك؟

– ثمني؟. أي ثمن؟ آه. ولكن من حسبتني؟ ثمني؟ ولكن لا شيء على الإطلاق. فأنا. ما أنا إلا رسول، ولو أنني كنت وحدي. ولكن هناك شبح ذلك المتشكك مسيو سيرول، وهو فوق تشككه متشدد جدا... ولكنه معقول أيضا، وهو غير حاقد عليك، ولا يطالب إلا برد المذكرات حتى يمكنه أن يرقد في سلام، فقد قال لي: فليعد هذا الوغد المذكرات فالتزم الصمت. ومهما يكن فأنا لست مستاء أبدا في الآخرة.

– هذا ابتزاز.

– لكل امرئ أسلحته.

– إنني أوثر أسلحتي.

وضغط البارون على جرس فظهر الخادم، وبإشارة من سيده مضى

ففتح درجا ودس فيه يده المغطاة بالقفاز الأبيض وأخرج منه مسدسا أوتوماتيكيا صوبه نحو رأوول، وقال البارون: ولا حركة يا صاحبي العزيز.

وضغط الجرس للمرة الثانية، وعرف رأوول أن الوافد الجديد القزم الأعرج الذي سبق أن رآه هو الآخر في القارب، وقال: إنني أهنئك يا عزيزي البارون، لا ريب أنك اخترتهما من حديقة الحيوانات.

وإذ تقدم الشقيان منه بادرهما قائلا: اخفضا أيديكما أيها الخادمان. ألبير، سوف تقدم لنا القهوة في الصالون.

ثم ألقى نظرة إلى ساعته وأردف يقول: العاشرة والنصف. ما أسرع ما يمر الوقت... ذلك أن المرء لا يتملكه الضجر في بيتك يا بارون. آه. أستطيع القول إنك تعرف كيف تسري عن ضيوفك، ولكن مما يؤسف له أنني مضطر إلى الانصراف في خلال ربع ساعة.

-حقا؟

- نعم، فإني على موعد في الساعة الحادية عشرة إلا الربع بالتحديد.

- مع امرأة.

- كلا، موعدي هذه المرة مع صديق لا أريد أن أدعه ينتظر.

- بل سينتظر.

- أوه، أبدا، فإذا لم أخرج من بيتك بعد ربع ساعة، فسيرسل طردا صغيرا إلى عنوان بالذات، فهل تخمن ماذا يوجد في هذا الطرد؟ ....

كلا، أنت ضيق الأفق يا بارون. فيه بكل بساطة قطعة من الوراقة مع شرح واف بطريقة استخدامها.

وصب رأوول لنفسه قليلا من النبيذ وعقد ساقيه وألقى ذراعه فوق مسند مقعده في غير اكتراث، وجرع شرابه في بطء وفي نهم في حين انقلبت سحنة البارون، وعاد رأوول يقول:

– أنت غبي. وكنت أظنك على جانب ولو يسير من الذكاء! كيف خطر لك أنه يمكن أن أعرض نفسي لخطر دهم دون ترو. انصرف يا هذان.

نظر الخادمان إلى جالسيران فهز هذا رأسه فوضع ألبير المسدس أمامه، وانصرف مع زميله وهما يتذمران. وقال رأوول:

– هذا عين العقل.... والآن؟ ... المذكرات؟ ... لم يبق غير سبع دقائق وأرجو أن تكون ساعة صديقي مضبوطة وألا تقدم.

قال البارون: أيها الوغد.

– إنني لا أطالبك باعتراف... المذكرات!

نظر البارون إلى المسدس، وبدا للحظة كأنه يتردد ثم نهض، وهو يلقي بمنشفته على الأرض. ومد رأوول يده في هدوء وأمسك بالمسدس قال: تخطئ إذ تلهو بمثل هذه اللعبة، فإن المصائب تقع بسهولة. وفتح الخزان وتحقق من أن رصاصة قد انطلقت منه ثم أعاد المسدس فوق الغطاء، وكان جالسيران في الغرفة المجاورة يبحث في خوان وهو يسب ويلعن،

وبدون أن ينطق بكلمة ألقى بالكتاب فوق المنضدة، وهو كتاب ضخم مجلد بالجلد وعلى سطح غلافه تاج الكونتية. وتصفحه رأوول على عجل. كانت الصفحات مغطاة بكتابة دقيقة ضيقة حتى الهوامش. وقال: هذا حسن. فلترقد روح سيرول في سلام. إليك نصيحة صغيرة يا بارون. تجنب نورماندیا. فالجو فيها رطب وردیء. والرطوبة ضارة بروماتيزمك.

ووضع الكتاب تحت إبطه وخرج وهو يصفق الأبواب بالجدران تفاديا لأية مفاجأة... ولكن الخادمين كان قد اختفيا. وتوقف وصاح وهو على البسطة: اعلم يا عزيزي البارون أن البصمة الدامية إن هي إلا مجرد مزحة.

ثم أسرع إلى الحديقة وهو يضحك.

وبعد نصف ساعة كان ينضو عنه ثيابه في مسكنه الذي يتخذه في بوليفار بيرير، وحدث نفسه قائلا:

– لا أستطيع الاحتمال. ولكنني غلبتك على كل حال يا بارون وقهرتك، ولا شك الآن أنك تتميز غضبا وتتلوى فوق النار... آه، أتحرق أقدام الشيوخ... أنا بدوري أشويك على نار هادئة.

وتثاءب طويلا، وأخذ يرقص وهو بالبيجامة في مرح ويقول:

– أوليه! ... رقصة الشبح! ... فليسقط الأرستقراطيون.

وفكر فجأة في الفتاة الشقراء، هناك، في قصر الجميلة النائمة وتمتم:

آه أيتها الأميرة!. لو أنك رأيت فارسك الجميل.

وتنهد واستلقى فوق الفراش وفتح الكتاب، ولكن التعب حل عليه فجأة وغلبه على أمره فقال:

– غدا العمل يا عزيزي لوبين.... يكفي ما فعلته اليوم.

نام على الفور.

طلع منذ مدة عندما استيقظ. وكان أول حركة منه أن مد ولة ولكنه لم يتمالك من أن يطلق صيحة، فقد اختفت المذكرات.

الفتاة اليائسة

دفع الغضب برأوول خارج الفراش وأسرع إلى الباب. لم يفكر السارق حتى في أن يغلقه خلفه، وكذلك باب الردهة كان مفتوحا.

وعاد إلى غرفته وهو يرتجف من الغيظ، لقد غرر به ولم تكن السرقة هي التي أخرجته عن طوره وإنما الجرأة التي تمت بها... إنه خسر المعركة، ليكن... فهذه أخطار المهنة، ولكن أن يسترد البارون المذكرات تحت أنفه فهذا ما لم يستطع أن يهضمه. وتملكه في نفس الوقت خوف أصم، فقد عرف جرأة العدو على حقيقتها مرة أخرى وتأكد من تصميمه البارع. ستكون المعركة ضارية تحفها الأخطار، لا رحمة فيها ولا هوادة. وأرغم نفسه على الضحك، ولم يلبث، وهو يقوم بتمريناته الرياضية الصباحية، أن ابتسم وهو يفكر في الهجوم المضاد. صحيح إن المذكرات الآن بعيدة عن يديه، ولكن يبقى الشيخ. آه... أما هذا فسوف يحمله على الكلام، وبأسرع ما يكون.

وصلصل جرس التليفون، وكان يتوقعه، فتناول السماعة:

– آلو.... هل تعرف صوتي! ... نعم يا صديقي العزيز...هو أنا.

يجب أن أعتذر لك، فأنا لم أحسن استقبالك أمس... فقد كان العشاء متواضعا، وقد استولى على الخجل فلم يغمض لي جفن، وقلت لنفسي ماذا لو أقوم بزيارة قصيرة لهذا العزيز رأوول؟ ... كانت بطاقتك معي وعليها عنوانك. وكان الوقت متأخرا بعض الشيء، ولكن الحرب هي الحرب، أليس كذلك؟ وبهذه المناسبة، أسديك نصيحة، وهي أنه يجب أن تغير أقفالك، فإن دخول مسكنك من أسهل الأمور، وعليه، فقد دخلت، ولكن ماذا أرى؟ ... هذا العزيز دابنياك ينام كالملائكة. لم يطاوعني قلبي على إيقاظك، فأنا لست رجلا شريرا. واكتفيت بأن آخذ معي تذكارا... تذكار تافه إشارة إلى مروري. وإذا كانت المذكرات قد أثارت اهتمامك حقا لوجدتك عاكفا على قراءتها، ومع ذلك أؤكد لك أنها جديرة بأن تقرأ... فهي تحتوي على أشياء... وأشياء. وسوف أحرص عليها بعد قراءتها، ولكن هل تعرف ما يجب عليك أن تفعل؟

وتبدل صوت البارون، فأصبح ضاربا وهو يستطرد قائلا: عليك أن تستقل أول قطار إلى إيطاليا وأن تمضي هناك بعض الوقت للاستجمام، بعيدا عن باريس... بحيرة كوم مثلا... أو البندقية إذا شئت.

قال رأوول: وإذا رفضت؟

– سوف تندم على ذلك، فأنا رجل كريم ويحزنني أن يقع لك شيء، كلا، لا داعي لن تشكرني... وإذا أتيت مرة أخرى للعشاء فأخطرني قبل ذلك، فإنني أعلم أنك رجلا أكول حقا.

قال رأوول: أوه.... إنني رجل بسيط... لن أطلب منك أكثر من هذا الطبق الذي تجيد طهوه.

– آه... وما هو؟

– الأقدام المشوية.

وأعاد رأوول السماعة... كانت له الكلمة الأخيرة. وكان هذا عزاء ضئيلا، وإذا أصر الشيخ على الصمت. ولكن لا. إنه سيريد أن ينتقم من الذين اعتدوا عليه. ولن يستطيع مقاومة استجواب يتم برفق ومراعاة، سيكشف لمنقذه عن سر قص يونرفيل، وسيضطر البارون إلى الرضوخ للأمر الواقع. وفي تلك اللحظة بالذات هزأ رأوول بالسر لأنه لم ير فيه إلا الوسيلة للانتصار على غريمه ولإعادة سخرياته وتهكماته إلى حلقه.

وارتدى ثيابه على عجل، لم يطق البقاء مكانه. ودار المحرك عند أول دورة، ووثب رأوول وجلس أمام عجلة القيادة. وكانت السيارة في حالة جيدة، ولكنها في ذلك اليوم بالذات كانت أكثر من ممتازة، لم يقع لها أي عطل ولم تنفجر عجلة من عجلاتها، ولم تلتق بغير بضع عربات يجرها أصحابها باليد في الطريق النورماندي، وكانت السيارة تتجاوزها

كالعاصفة، تخفيها على الفور موجة من الغبار. وفي آخر الضحى أبصر رأوول قبة جرس كنيسة نوتردام دي جراس.

– حسنا يا عزيزتي فيكتوار... والمصاب؟

وكان قد أسرع فدخل الغرفة يدفعه الغضب إلى التصرف والإسراع بالعمل وإلى أن يعرف كل شيء على الفور. وتمتم برونو:

– صه. إنه ينام.

– هل تكلم؟

– لم يتكلم بعد.

– والحروق؟

– في طريقها إلى الالتئام.

– عجل بتقريرك أيها الطبيب... هل ينبغي أن أنتزع منك الكلام انتزاعا.... ماذا يقولون في البلد؟

– لا شيء. بضعة أسطر في الإيكو دي تروفيل فحسب. يعتقدون أن الشيخ... الأب برناردان كما يدعونه... يختفي مؤقتا، وأنه راح ضحية فقدان الذاكرة.

أمسك رأوول بمعصم برونو وقال: ولا كلمة... احرص على ألا يعلم أحد بوجوده هنا... وبعد؟ ... ألم يتكلم أحد عن القصر؟ ... وعن نوم أصحابه؟

هز برونو رأسه فعاد رأوول يقول: طبعا، فلم يفطن أحد لما حدث.

وعاد برونو يقول: وقد أقبلت الشرطة من أجل الشيخ. وهذا ما سمعته في الحانة، فقد تجولت في البلد كما لو كنت سائحا عاديا، ولكن الأهالي هنا يرتابون في الأجانب.

همس رأوول: استمر... قل كل شيء.

كان يراقب الشيخ برناردان، فقد لحظ ارتجافه الحابين وعرف أن الرجل لا ينام وأنه يصغي، وأدرك لعبة المصاب وفهم أن برناردان لن يستسلم بسهولة، فقد انتزع من القصر وأصبح لا يرى في كل مكان غير الأعداء، وهو الآن، إذ يسترد قواه، يلوذ بالصمت ويحتمي به ويحصن نفسه به بكل العناد المعروف عن الفلاح النورماندي.

– حسنا يا برونو... دعنا الآن.

وجلس رأوول على حافة الفراش، وفي رفق غير متوقع وضع يده على كتف الشيخ وقال: هيا يا جدي... حان الوقت لكي تفتح عينيك... رأوول دابنياك، هل تعرفه؟ ... القلب النبيل الذي أنقذك من الخطر مجازفا بحياته. ولكنه قد لا يستطيع إنقاذك دائما... إنني واجهت الأخطار العاجلة ووضعتك في مكانك أمين، وقدمت لك طبيبا وممرضة، ولكن يجب أن تساعدني الآن.

راحت عينا الشيخ المسكين الرماديتين النصف مطبقتين تحت

أهدابه المسدلة تفحصان الرجل المجهول المنحني فوقه والذي يحس بسلطانه كانعكاس نار الموقد، في حين عاد رأوول يقول:

– يجب أن تساعدني، وليس ذلك لصالحي وإنما لصالحك أنت، فأنت تعلم تماما أن أصدقاءك الثلاثة الذين عذبوك في المحجر لن يتركوك في أمان.

وأمسك برناردان من كتفه وانحنى فوقه، كمصارع يلقى بغريمه على الأرض، وأردف يقول في لهجة خطيرة:

– فإنني أعرفهم... وأعرف قسوة زعيمهم، ومهما أنا فعلت فسوف يعثرون عليك. وسأصل عندئذ بعد فوات الأوان... ولكن إذا تكلمت فقد أستطيع إنقاذ كل شيء... دم من إذن؟

تسارعت أنفاس العجوز وفتح فمه، وأدرك رأوول أن عملا غامضا يدور في هذا الذهن الذي لا زال متأثرا من العذاب الذي تعرض له ومن الإرهاق.

– دم من؟

خفض برناردان جفنيه في بطء، وبدا وجهه متجمدا تحت غضونه كوجه ميت، واعتصم بصمته منطويا على سره، وانتظر رأوول قليلا ثم اعتدل واقفا في سكون، وجفف بمناديله العرق الذي يتصبب من جبينه وتمتم يقول:

– أنا رجل صبور، ولا يمكن أن تتصور إلى أي حد يستطيع الصبر.

سأنتظر الوقت الذي لابد منه... ومقامك هنا لا بأس به، وسأظل محتفظا بك، ولكنك لست أسيرا... إنما أنت تحت المراقبة فحسب. عندما تريد أن تتكلم تكفي إشارة بسيطة وتجدني أمامك... وعندئذ نستطيع أن نفعل معا عظائم الأمور. وسوف ترى، وأنت على حق. ولكن خلف رأوول عشرة رجال آخرون... وعشرون أسطورة... إن تاريخ فرنسا أمامك في هذه الغرفة... مرحى يا برناردان معا حتى نهاية المغامرة...بل إنني سأعترف لك بشيء...

وأمسك رأوول فإن أنفاس الشيخ انتظمت... غلبه النوم، وإذ رأى رأوول ذلك فخرج على طرفي قدميه، وكان برونو ينتظره في الردهة يسأله: حسنا.

– إن العجوز شديد المراس، ولكن سينتهي به الأمر إلى أن يتكلم. استمر في مراقبتك له. أما أنا فسوف استبدل ثيابي ثم أمضي إلى القصر.

وأخذ رأوول من سيارته حقيبة سفر ضخمة، وبعد عشرين دقيقة كان قد اتخذ هيئة صحفي شاب يرتدي جاكيت من الجوخ وتتدلى من كتفه آلة تصوير. وعانق فيكتوار ثم قال:

– سأعود الليلة يا عزيزتي فيكتوار فكفي عن التأوه والنواح، أقول لك إنني لا أتعرض لأي خطر، والدليل أنني أريد أن أتناول عند عودتي طبقا من العجة اللذيذة التي تجيدين صنعها.

وجلس في سيارته التي يعلوها الغبار وانطلق في سرعة عادية في طريقه إلى يونرفيل.

كان يحب أن يجمع شتات أفكاره وهو أمام عجلة القيادة إذا ما أراد أن يبني خططه للمعركة، ولكنه في هذه المرة كان لابد له من أن يعترف بأن الموقف يتجاوز كل قدراته، فالمذكرات بين يدي البارون، والشيخ يرفض أن يعيد ما سبق أن أدلي به تحت لسعة الألم، فأين يوجه الهجوم؟ وإلى أين تقوده هذه الزيارة التي يزمع أن يقوم بها للقصر، كان رأوول يتخبط، وأحنقه شعوره بالعجز في حين أن سرا هائلا يتعرض لأن يكتشفه بعض المجرمين الأشرار الذين لا يميزهم عنه شيء غير أنهم لا يتورعون عن استخدام العنف.

ولا ريب أن هذا السر هائل حقا لكي لا يتردد البارون في التعذيب والقتل كما لو أن الوقت لا يسعفه وكما لو أنه إذا ما مضى تاريخ آخر أن يثير حنق رأوول هكذا. كان السؤال يدور في رأسه دوران محرك السيارة. دم من؟ دم من؟ كان السر يدور حول الدم ويتسبب في العنف والموت.

وأدخل سيارته عند مدخل يونرفيل ومضى إلى القصر في خطى وئيدة عن مكان يلجأ إليه على حافة الطريق لكي تمر سيارة تنطلق بأقصى سرعة. ومع ذلك فقد وجد من الوقت متسعا لكي يعرف الرجل ذا الحاجبين الكثيبين والوجه الصارم الذي يجلس بجوار السائق،

وتذكر الوجه الذي رآه على ضوء مصباحه الكهربي في الليلة الماضية في القصر... هوبير فيرانج... وراق له ذلك فإن غياب فيرانج سيترك له مطلق الحرية. وأحس بالقوة والنشاط وعاد يمشي. وكان هناك شرطي يتحدث مع امرأة قوية تحمل دلوا من الماء فاقترب رأوول بادي الفضول كالصحفي الحقيقي وقال في رفق وفي مرح:

– صباح الخير... ريشار ديمون، صحفي بجريدة أيكود فرانس.

سكت الآخران وقد بدا عليهم الانفعال. وألقت المرأة دلوها وجففت يديها. وحياه الشرطي. وقال رأوول:

– سمعت القوم يقولون إن رجلا اختفى. وكنت أمر بهونفلير فرأيت أن أتحرى الأمر قبل أن أعود إلى باريس.

وكان يبدو صادقا، وانتزع عطفهما وإعجابهما بخبث لم يسع الشرطي إلا أن يقول: أوه، كل ما في الأمر أن الأب برناردان طاب له أن يسري عن نفسه قليلا وآثر أن يختفي بضعة أيام كما سبق أن فعل. أليس كذلك يا آبولين؟

هزت آبولين رأسها وهي تشعر بشيء من الارتباك إذ دعاها الشرطي باسمها المجرد أمام رجل غريب، وقال:

– لا داعي للاهتمام فهو لم يعد يحتفظ بكل قواه العقلية، وسيعرف كيف يعود وحده. إن مواطنيك الباريسيين لديهم مشاغل أخرى بالتأكيد.

وعاد الشرطي يقول: إذا أردت نصيحتي فالزم الصمت فإن مسيو فيرانج لن يروق له أن تضخم الصحافة مثل هذا النبأ التافه. ثم إنه طويل الباع ولن يقف ساكنا.

– لم أكن أعرف هذا القصر... إنه رائع.

اصطبغ وجه آبولين سرورا، وفتل الشرطي شاربه وقال:

– أجل. وإن القوم يأتون من بعيد لرؤيته ولكن مسيو فيرانج لا يسمح لهم بزيارته، وإن كان هذا يسعد الأب برناردان، فهو يعتبر القصر قصره، وله العذر في ذلك فقد قضى فيه كل عمره.

وتدخلت آبولين فقالت: بل إنه ولد فيه.

أخرج رأوول آلة التصوير من جرابها وألصق عينه بعدستها ثم قال: وكيف السبيل إلى مقاومة هذه ابتسامة الفتية وهذا الظرف البالغ؟. وقالت آبولين: يجب أن أستأذن الآنسة.

وقال الشرطي: الآنسة لوسيل، ربيبة مسيو فيرانج.

وبينما كانت آبولين تمضي إلى القصر استطرد وهو فخور بأن يظهر لصحفي باريسي أن الشرطي يمكن أن يكون شيئا آخر غير الشخصية الكاريكاتورية التي يتندر الناس بها:

– وهي فتاة فاتنة لقيت الكثير من المصائب، فقد فقدت أبويها منذ سنتين بطريقة غبية، فقد غرقا أثناء نزهة في البحر، ويبدو أن جاك فيرانج

كان مهندسا ينتظره مستقبل عظيم، باع الكثير من الاختراعات وخاصة للأمريكيين وأصاب ثروة كبيرة في بضع سنين. وكان القصر معروضا للبيع فاشتراه. ولكن يبدو أن هذا القصر لا يجلب الحظ لأصحابه، فقد فتشوا الساحل كله ولم يعثروا حتى على الحطام. كان زورقا شراعيا صغيرا طوله ستة أمتار، وكان مسيو جاك مغرما بركوب البحر. أورأيت إلى عجائب الصدف؟ عندما كانا يخرجان للنزهة كان من عادتهما أن يصطحبا الآنسة لوسيل معهما دائما. لا زلت أذكر تقرير ضابط الساحل، وقد أثارتني هذه النقطة في ذلك الوقت. كانا يصطحبانها دائما ولكنهما من ذلك اليوم بالذات تركاها في القصر.

كان رأوول يصغي إليه في اهتمام كبير، وكان ذهنه يسجل كل صغيرة وكبيرة، يفحصها ويجللها ويبوبها في ذاكرته العجيبة. وقال يسأل الشرطي: ألم يعثروا على الجثتين أبدا... إن البحر يلفظ الجثث عادة.

– لم يلفظها تلك المرة، ولكن الشيء الذي يثير الحزن أكثر من غيره هو أن الفتاة المسكينة أصابها المرض على أثر هذا الحداد. ولم يعرف أحد سبب علتها ولكنها كانت لا تذوق الطعام ولا النوم كما تقول آبولين. وكانت تقضي أياما برمتها على مقعدها المستطيل في البستان، وصحيح أن البيت لا يدعو إلى المرح، فإن مسيو هوبير، القيم يقضي كل وقته في المصنع، فهو يملك مدبغة للجلود في بون أوديمار، والفتاة

المسكينة دائما وحدها. هناك عمها الفونس طبعا ولكن ما من أحد يراه أبدا، ومع ذلك فهو لا يقيم بعيدا، لقد ورث البيت الذي كان المهندس يقيم فيه قبل أن يشتري القصر.

صاح رأوول وهو يضحك: ولكنك تعرف أكثر مما يعرفه أي محام.

ابتسم الشرطي بدوره وقال: هذه مهنتي. ثم إن آل فيرانج من علية القوم، ولهذا فإن الجميع يعرفون عنهم كل شيء تقريبا.

– وهذه الطفلة التي تختفي هناك، خلف حوض الزهور... من هي؟

– آه. هي فاليري. حفيدة الشيخ برناردان. وهي الأخرى يتيمة، وجدها يقسو في معاملتها، ولكنه يعبدها، ولهذا السبب بالذات لا أفهم لماذا رحل دون أن يخبرها أين هو ذاهب.

عادت آبولين في هذه اللحظة وقالت: إذا تكرم السيد أن يتبعني فإن الآنسة يسرها أن تتحدث إليه.

قال الشرطي: أنت رجل محظوظ.

بسط الصحفي المزعوم يده له وقال: أشكرك مرة أخرى، ولا تخف، فسوف أكون كتوما.

وأمسك بدلو الماء وقاوم آبولين التي أرادت أن تأخذه منه قائلا:

– دعيه... دعيه... سأرده إليك في آخر الممر.

كان ذلك الصحفي رجلا ممتازا وخدوما ولطيفا، فكيف لا تسرع

آبولين وترد على أسئلته: إنها تعرف أن الصحفي يجب أن يكون فضوليا، ولهذا راحت تبوح له بكل ما تعرف. نعم، إنها خادمة وطاهية في نفس الوقت، وزوجها أشيل، يعمل بستانيا وسائقا في وقت واحد، أما العجوز برناردان فإن وظيفته غامضة، فهو يروق له أن يقول عن نفسه أنه رئيس الخدم لأن هذه الصفة كانت تعيد إلى ذهنه الأيام الخوالي.

وهو رجل غريب الأطوار حقا، ويجب أن تراه وهو يأخذ كل شيء مأخذ الجد، وأن تسمعه وهو يبرر نفسه... رجل مزعج... وحفيدته المسكينة!.. إنه يبذل كل جهده لكي يضيع عليها المدرسة في أغلب الأوقات. يقول إنهم لا يعلمونها هناك شيئا غير الأكاذيب... شيخ مجنون... والآن، أعد إلى دلوي فقد وصلنا».

أفضى بهما ممر يدور بالقصر إلى البستان. كانت لوسيل هناك، تحت شجرة كستناء، ممتدة فوق مقعد مستطيل والكلب عند قدميها. وكانت تقرأ جريدة. وكانت أكثر جمالا وأكثر فتنة مما رآها في الليل وهي سادرة في نومها، واعتدل البول دوج على قوائمه المعوجة وراح يزمجر.

– أرقد يا بولوكس.

كانت تتكلم بذلك الصوت المتعب الذي يتكلم به المرء الذي يفقد الأمل في الشفاء وألقت الجريدة فوق ركبتيها ورمت الزائر بابتسامة حافلة بحزن مثير، وانحنى رأوول وقال:

– ريشار ديمون، من جريدة إيكو دي فرانس.

وقالت لوسيل: آبولين، أمضي وهاتي مقعدا.

ولكن رأوول أسرع يقول محتجا: لا داعي لذلك. عندما يكون أمام المرء مرجة جميلة مريحة كهذه فإنه يكون في غنى عن المقعد.

وجلس فوق العشب، عند قدمي الفتاة، بدون تكليف، ثم ربت على رأس البول دوج، بين أذنيه، وسال لعاب الكلب لفرط سعادته واستمرأ المداعبة. ولاحظت لوسيل ذلك في دهشة وتمتمت:

– هذا غريب، ومع ذلك فإن بولوكس شرس.

– هذه مهارة اليد، ثم إنني أعرف كيف أعامل الحيوانات والرجال... لست أخرق إلا مع الفتيات.

وانفجرا ضاحكين معا، واكتسبت وجنتا لوسيل قليلا من اللون.

وذكر رأوول «اضحكي يا جميلتي، ولا تفكري في أيام الشقاء، أريد أن تحبي الحياة وتفتتني بها وأن تنظري إليّ بهذه النظرة الساحرة دائما.»

واقتطف زهرة من زهور اللؤلؤ، وأخدها بين أسنانه، وقال:

– كان يسعدني أن أهنئك على هذا القصر الجميل ولكنني علمت أنك لقيت فيه من التعاسة والشقاء أكثر مما لقيت من سعادة وهناء... ولهذا يجدر بنا أن يقتصر حديثنا عنك أنت.

– أوه... عني أنا... أنا لست شيئا... ما دمت تعرف كل شيء فلابد

أنك تعرف...

وتهدج صوتها فقال ريشار ديمون المزعوم: هيا، تشجعي... أنت في السابعة عشرة.... ولا ترين غير وصي متذمر وخدم مذعورين وذلك الشيخ المجنون برناردان... تشعرين بأنه لم يعد لك ماض ولا مستقبل ويتملكك الضجر بحيث تدعين المرض لكي تشعري بشيء من الرعاية والاهتمام عوضا عن المحبة والحنان.

كانت لوسيل تصغي إليه في دهشة متزايدة، واستطرد رأوول يقول: ولكنك ذات مواهب متعددة، وإذا كنت تتوهمين أوهاما كاذبة، وإذا كنت تتصورين أنك أشقى المخلوقات....

قاطعته لوسل قائلة: ولكنني أشقى المخلوقات.

وتصاعدت الدموع إلى عينيها، وتمتمت: أوه، لماذا لم يصطحباني معهما في ذلك اليوم؟. لماذا؟. لكان الموت قد طوانا نحن الثلاثة... لقد كنا سعداء جدا.

قال: تكلمي... استمري، فأنا صديقك.

وأخذ يدها وضغط عليها في رفق ليعيد إليها قليلا من الدفء، واستمرت تقول في هدوء أكثر: ماتا في التاسع عشر من أغسطس، بعد تسعة عشر عاما، يوما بيوم من أول لقاء لهما... وهو لقاء مأساوي حقا، فقد اشترى أبي قبل زواجه بيتا خلف كنيسة سانت أدريس ملحق به بيت

آخر صغير للصيد وهو عبارة عن كوخ ملتصق بالصخور أمام خليج صغير لم يكن يؤمه أحد على الإطلاق وكان يستجم فيه ويرسم لأنه كانت له كل المواهب. وذات يوم سمع بعضهم يصرخ طالبا النجدة... كانت فتاة ... أمي المقبلة... كانت في بلاج مجاور فجرفها التيار، ولو لم ينقذها أبي في الوقت المناسب لغرقت لا محالة... ولم يمنعهما ذلك من الموت غرقا على كل حال... بعد تسعة عشر عاما... هل تؤمن بالقدر يا مسيو ديمون؟

– طبعا، مثل جميع الذين تحفل حياتهم بالمغامرات. وماذا حدث لذلك البيت الصغير؟ ... هل باعه أبوك؟

– كلا. بل احتفظ به للذكرى. ولكنه لم يكن يختل إليه ولا ريب أنه في حالة يرثى لها الآن.

راح رأوول يفكر، وبدا بتلك الغريزة العجيبة التي أتاحت له كسب كثير من المعارك يخمن أن خلف هذه المصادفات شيئا كئيبا، ملتو، أشبه بمؤامرة، وقال: هل يمكنني أن أزور هذا البيت؟

أجفلت أوسيل على الفور وقالت: إنني بحت لك بسر ولا يجب أن يعرف أحد...

– اطمئني... لن يعرف أحد.

وكانت لهجته تفيض بالإقناع بحيث اطمأنت لوسيل على الفور.

– سر في طريق نحو ثلاثة كيلو مترات أو أكثر قليلا بعد كنيسة سانت أدريس، وهناك تجد دربا منحدرا والبيت معروف باسم «الصخرة الكبيرة».

– سؤال آخر. أظن أن أمك كانت عاطفية جدا. ورومانسية جدا؟

– نعم، وإنني أشبهها كثيرا.

قال رأوول يحدث نفسه: طبعا... بدأت أفهم.

ووثب على قدميه وهو ينهض متلهفا... أحس بالرغبة في إدهاش الفتاة، وفي النضال من أجل حتى يعيد إليها البسمة، وفي نفس الوقت أحس بأن خطرا خفيا يحوم حولها، وكان الإحساس من القوة بحيث ألقى نظرة فاحصة إلى الغابة، ولكن لو أن أحدا كان يختبئ على مقربة منهما لنبح الكلب.

وقال يسأل الفتاة: هل تثقين بي؟

رفعت إليه نظرة حزينة من عينيها البنفسجتين وقالت في تفكير:

– إنني لا أعرفك يا سيدي، ولكنك تختلف كثيرا عن الآخرين. نعم. إنني أثق بك.

– يمكنك ذلك، بل يجب أن تثقي بي. والآن اصغي إلي. عودي إلى البيت، ولا تتحدثي عن زيارتي مع وصيك. وغدا، في تمام الساعة الثالثة سوف نلتقي. ليس هنا. بل خارج القصر. عند ناصية البستان والطريق. قد يكون لدي الكثير لأخبرك به. كلا. لا تسأليني فلا زال الوقت مبكرا.

إلى اللقاء أيتها الفتاة العزيزة. ابتداء من الآن، ومهما يحدث، قولي لنفسك أنك لست وحدك وأن هناك شخصا على مقربة منك، يسهر في الظلام ولن يسمح لأحد أن يمس شعرة من رأسك.

– هل تظن إذن أنني في خطر؟

وضع أصبعا على شفتيه وقال: غدا... الساعة الثالثة.

قرية برفيل... والبحيرة على نهر السين، وطريق الهافر... كان في مقدور رأوول اجتياز هذه الطرق مغمض العينين طالما بدت له مألوفة... ألهذا السبب كان يشعر بكل هذا النشاط وهذه الحيوية؟ وقال يحدث نفسه «هيا، كن صريحا، لا تحاول أن تخدع نفسك، اعترف أنك سعيد، سعيد بصورة غير معقولة لأنك تريد إنقاذ هذه الفتاة اليتيمة الضائعة... لأنها جميلة ولأنك لوبين... لأنك غبي لا يرجى إصلاحك ورغم كل شيء فإنني أحب نفسي كما أنا»....

واجتاز إحدى القرى والطيور تحلق فوقه مذعورة. واستأنف منولوجه قائلا: ليست مصادفة أن يموت جميع أصحاب قصر يونرفيل الواحد بعد الآخر بطريقة مأساوية، وليست مصادفة أن يعذب البارون الأب برناردان فهل هناك علاقة تربط بين كل هذه الأحداث؟. وما هو الخطر الذي تتعرض له لوسيل.... لا أدري، ولا داعي للعجرفة. إن مثل هذه الأحداث لا يمكن أن تجوز على فإنني أملك أثرا صغيرا وهو

أن جاك فيرانج وزوجته قد لقيا مصرعهما قتلا... ولكن كيف؟ ... ولماذا؟ هذا أمر غامض... القديس جان يخلف يعقوب، ودارتنيان... حسنا. لا داعي للإصرار.

وبلغ صخور سانت إدريس... وأشارت له إحدى الفلاحات إلى كوخ «الصخرة الكبيرة» كيلو متران آخران ويرى الدرب، ولكن يجب أن يتوخى الحذر لأنه وقعت انهيارات أثناء الشتاء الماضي. وترك رأوول سيارته في أحد المنعطفات وتابع طريقه على قدميه. وعادت إلى ذهنه ذكريات حاول جاهدا أن يفضيها عنه، فقد خيل له، وهو في بقعة أخرى، غير بعيدة عن المكان الذي هو فيه الآن، بينما كان يبحث عن مأوى يخفي فيه شدته وضيقه أن كل شيء قد انتهى، وأن الحياة، لن تواتيه بعد ذلك بأية بهجة أو أي مرح. ولكن رجلا مثله كان خليقا بأن يجتاز في حياة واحدة حشدا من الحيوانات المتتابعة. وأحس بأعجوبة بأنه جديد وأنه ينبض نشاطا وحيوية. لن يستعصي عليه سر يونرفيل مدة طويلة فما من شيء استعصى عليه حتى الآن.

انحدر الشاطئ الصخري، ولم يلبث أن اكتشف الدرب الذي يتعرج خلال أرض مغشوشية وقال: يا للشيطان. لقد كان السيد فيرانج مغرما بالتسلق.

ولكن سرعان ما تحقق أن بالطريق نتوءات طبيعية في مقدور الإنسان أن يعتمد عليها في هبوطه وصعوده، وتجعل الطريق آمنا بعيدا

عن الأخطار رغم الفضاء الذي يبدو كأنه يكمن دائما للمتسلق، ولم يلبث أن بلغ بلاجا ضيقا محصورا بين نتوءين صخراوين تهيمنان عليه من عل. وكان الإحساس بالوحدة والعزلة يكاد يكون مضنيا، وكانت الصخور تمتد حتى الأمواج الأولى. ورأى على المبني كوخا بدا له أنه يستند على الصخور، وكان لابد للمرء من بلوغ البلاج لكي يراه. ودار حوله وتحسس مصاريعه بيده، وكانت لا تزال متينة، وكان الباب موصدا. وقد حولت الرطوبة جدران الكوخ إلى اللون الأخضر. ولكن الكوخ نفسه قاوم تقلبات الجو المختلفة رغم إحساس الهجران الذي يبدو عليه، وبين ظهر الكوخ والصخور مكان ضيق مزدحم بالأنقاض والبقايا: أدوات قديمة ومجاديف وسلم نخره السوس وأكله الملح وصناديق للصيد. ووضع رأوول يديه على خاصرتيه وراح يفحص في تفكير المنظر الغريب الذي أمامه.

وتمتم: كل هذا سخيف... سخيف... ولكنه جذاب... يستطيع من يعيش هنا الاستغناء عن العالم وما فيه.

وأخرج من جيبه علبة مسطحة تحتوي على عيدان معدنية مختلفة الأشكال وراح يعالج القفل الذي قاومه كثيرا لفرط ما علاه من صدأ، وانفتح الباب أخيرا ودفع إليه بنسمة من الهواء المخزون تفوح بالعفن. ودخل، وألقى نفسه في غرفة لا ريب أنها كانت تستخدم فيما سبق

لتناول الطعام وللنوم، فقد كان على يسارها أريكة كبيرة وفي آخرها حامل للرسم، وكانت هناك لوحات لا تزال معلقة لصق الحائط. وعلى اليمين مائدة لاثنين والأطباق معدة فوقها.

وفي فازة بين الأطباق سيقان مسودة في طريقها إلى التلف. وفي الموقد قدر انهار فوق كومة من الرماد. وقال لوبين: «كانتا في مدينة بومبي». كان كل شيء كئيبا، لزجا فقد الحياة بطريقة بشعة. ولكن كان الشيء الذي أثار قلقه أكثر من أي شيء آخر هو تلك المائدة المعدة كما لو أن قليلا من الحب دخل الغرفة ولا زال بها حتى الآن متحديا الزمن.

خلع رأوول قبعته بحركة آلية ثم تقدم بضع خطوات وفحص الأرضية، وكان يعلوها الغبار ولا تزال عليها آثار أقدام، لم يكن هناك سبيل للخطأ. كانت آثار رجل وامرأة يسيران جنبا إلى جنب. وفكر: جام فيرانج وزوجته. أرادا الاحتفال بذكرى أول لقاء لهما فأقبلا إلى الكوخ، وهذا هو السبب في أنهما لم يصطحبا ابنتهما معهما، فقد كان العيد عيدهما، ولم تكن النزهة في الزورق إلا ذريعة... أرادا أن يكونا وحدهما لا ثالث لهما و... فحص رأوول الأرض من جديد وقال: ولم يغادرا الكوخ، هذا غريب!

كانت الآثار تتشابك من الباب حتى المائدة ومن المائدة حتى الموقد ثم تمضي نحو غرفة أخرى تخفيها ستارة، ولا ريب أنها غرفة

المطبخ. ولكنها لم تعد منها، فهل هناك باب آخر لمغادرة المطبخ؟

وتقدم رأوول وقلبه يخفق شيئا ما. ما الذي يختفي خلف هذه الستارة؟ ... وأزاحها، وفجأة، تهربت الأرض تحت قدميه.

سريعا بحيث أن رأوول لم يسعفه الوقت لكي يمد ذر ن نقطه ارتكاز، ووقع بشدة، ولكن السقطة كانت قط مال. وكان باب الفخ قد عاد مكانه بتأثير زنبرك خفي في صو كالفخ حين يطبق على فريسته.

المقبرة

كان الظلام شاملا، وجلس رأوول وتحسس نفسه. ولم يصب بأي جرح. ومد يديه حواليه ولم يلتق في كل مكان بغير الرمال.

كان موجودا في قبو، وكان البيت مشيدا على أساسان خفيفة، ومع الزمن تغلبت الرمال على الاستحكامات فجأة وبدأت تتسرب داخله كما تتسرب مياه البحر داخل حطام. ووقف رأوول واشرأب على قدميه بقدر استطاعتها، ورفع ذراعا إلى ما فوق رأسه ولم يلتق إلا بالفراغ. وكان المصباح الكهربي الذي لا يفارقه مطلقا قد تحمل الصدمة ولم يعكس غير شعاع خفيف، ولكنه كان من الكفاية لكي يضيء باب القبو، لم تكن به أية حلقة ولا أية خشونة. كان الزنبرك القوي الذي يعيد الباب الخشبي القلاب إلى مستوى الأرض مركبا في تجويف من البناء لا يمكن الوصول إليه.

أدار رأوول شعاع المصباح الكهربي حوله. كان القبو واسعا وشاغرا تماما. لم يكن به أي مقعد أو أي صندوق يمكن الوقوف عليه للوصول

إلى الباب القلاب. وحتى لو كان هناك ما يستطيع أن يقف عليه ويصل إلى الباب فما كان في مقدوره أن يفعل أي شيء لأن الباب نفسه كان أملس وما كان في استطاعة أي مخلوق أن يزحزحه على الإطلاق. ومع ذلك فقد انعكس نور المصباح على شيء تألق في أبعد ركن من القبو، فاقترب رأوول منها وما كاد يفعل حتى تفصد العرق من جبينه وقد تملكه القلق، فإن الشيء الذي تألق لم يكن غير رأس ميت. جمجمة بيضاء كعظمة سمك السبيرج التي لقاها المرء على الساحل. ومن طبقة الرمال الخفيفة التي تجمعت خمن رأوول هيئة هيكل عظمي يعانق هيكلا عظميا آخر، أقصر قامة من الأول جمجمته لا تزال تلتفت نحو وجه حبيب.

مات العاشقان أحدهما في أحضان الآخر، وكل منهما يبتسم لصاحبه ابتسامة الأبد.

أطفأ رأوول مصباحه.... هذا الرجل الذي واجه العديد من الأخطار وسخر من الموت، المرة بعد المرة أوشك أن يقع فريسة لانهيار عصبي. أدرك في لحظة واحدة الحقيقة التي كان يتوقعها... فقد لقى جاك فيرانج وزوجته حتفهما قتلا، بعد أن حول القاتل بكل صبر وكل دقة عش الغرام إلى فخ قاتل، فإن فريستيه كانا يأتيان إلى "الصخرة الكبيرة" في كل سنة، ووجد كل وقته لإعداد الباب القلاب وهو على يقين من أنه في اليوم المرتقب سوف تطبق على فريسته. وقد نجحت مكيدته البشعة،

ولسوء الحظ جاءت الآن فريسة ثالثة ووقعت في الفخ، ولا مفر لها الآن من أن تشارك الفريستين السابقتين مصيرهما، فما الجدوى الآن من الصياح والصراخ والاستنجاد؟ وما جدواه من أن يفعل ما سبق أن فعله الزوجان من قبل عبثا؟

تمدد رأوول فوق الرمال الرطبة وعقد يديه خلف عنقه وحاول أن يفكر في هدوء. لم يكن هناك من يعرف أنه قادم لزيارة هذا البيت، وعليه فلن يخطر لأحد أنه هبط إلى هذا البلاج وأن يفحص المكان ويدخل البيت. كانت هناك طبعا السيارة التي تركها في طريق الصخور، وسوف تثير دهشة الناس وسيذكرون أمرها للبوليس. ولكن التحقيق لن يتعدى أكثر من ذلك، ولا يبقى أمامه الآن إلا أن يحفر نفقا، ولكن بماذا؟ أبيديه؟

خلع رأوول سترته وطواها بعناية وجثا بجوار الجدار وبدأ يحفر، ولكنه لم يلبث أن استسلم للواقع، فقد كانت الرمال مائعة وكانت تنساب في الحفرة كلما ازدادت اتساعا، وكان لابد أن يرشها بالماء ولكن من أين لها بالماء؟ ومع ذلك فقد بقي رأوول على إصراره وراح يجمع الرمل بملء يديه ويلقيها بعيدا من فوق كتفيه. وأفلح في إحداث حفرة صغيرة ولكنه سرعان ما توقف وقد نال منه الإعياء كل مثال، أحس في الظلام أن هذه الحفرة عميقة جدا وتخبط وهو يبحث عن جاكتته. أين وضعها؟ وتقدم وهو على ركبتيه ويده مبسوطة إلى الأمام

وهو يخشى في كل خطوة أن يمس الهيكلين.

وانتهى بأن عثر عليها أخيرا وأشعل مصباحه..... ولم يكن عمق الحفرة ليزيد عن ستين أو سبعين سنتيمترا. وقد اقتضت منه هذه المسافة الهزيلة مدة طويلة وجهدا أكبر. ورأى أنه من غير أداة في يده لن يستطيع شيئا فقد كان هذا الرجل القوي يعرف أكثر من غيره أين يبدأ المستحيل. وجفف جبينه وحاول أن يمزح ليس هذا بالوقت المناسب لكي أصاب بالبرد. آه.... من لي بكأس من الشراب" ولكن الصمت كان مطبقا بحيث لم يسعه إلا أن يرتجف. وجلس معتمدا بظهره على الجدار وقد شل التعب جسده. وشيئا فشيئا تولد الخوف. ولأول مرة في حياته لم ير ذهنه المتوقد الذي لم يخنه مرة واحدة في حياته الحافلة بالمغامرات حلا لمشكلته الحالية، ولأول مرة في حياته لم يعد لوبين بلوبين.

أي مجرم ذلك الذي ينازله؟ ومن ذلك الذي دبر ذلك الانتقام البشع وحكم على بريئين بالموت جوعا وعطشا ويأسا. ثم إنهما كانا اثنين، يساند كل منهما الآخر حتى اللحظة الأخيرة في حين أنه هو... وحده، لا نصير معه. وأرهف أذنيه. كان هناك صوت أصم يدوي بعيدا... صوت البحر. كانت الأمواج تتلاطم فوق الشاطئ الصخري حوله... الخوف الممزوج بالهواء الذي يستنشقه. إنه قوي وسوف يقاوم بضعة أيام، ولكن احتضاره سيطول.

واستجمع قواه وهم بأن يصرخ، ولكن الشيء الوحيد الذي أرغمه على أن يحتفظ بهدوئه ووقاره هو إحساسه السخيف بأن الهيكلين ما هما إلا جمهور رغم كل شيء. وتخيل أنهما يراقبانه وأن كل منهما يقول للآخر "إن لوبين ليس شجاعا، إنه جبان خائف" وقال يحدث نفسه" إنهما على حق فأنا جبان وقد بدأ الخوف يسيطر على، ولكن لو أن أمامي سببا طفيفا باعثا للأمل فسوف يرى العالم أجمع ما يمكن أن أقدم عليه، ولكن لسوء الحظ ليس هناك أي أمل. إنه الحادث الغبي غير المتوقع الذي لا مخرج منه. معذرة يا عزيزتي لوسيل.... لن أكون في الموعد الذي ضربته لك...".

وفجأة عرته الدهشة. إن الأمل موجود طبعا. وهو أمل ضعيف في الواقع... لوسيل... ولكنه سرعان ما أقصاها عن ذهنه. ستنتظره لوسيل في الساعة الثالثة، وربما تنتظره مدة طويلة ثم تعود أدراجها حزينة. لماذا تقطع هذه المسافة الكبيرة حتى الكوخ الذي يعد إلى ذاكرتها مثل هذه الذكريات الحزينة. ولكن الأمل أشبه بنار صغيرة تتغذى بأوراق الشجر، وأضعف الأسباب تفلح في إضرامه... فأولا لم لا تكن المسافة كبيرة جدا، وهناك دراجة في القصر، ثم إن لوسيل سيدفعها الفضول إلى أن تعرف لماذا لم يواتها هذا الرجل الذي يبدو أنه يخشى خطرا. ولأن هذا الرجل قد أثار قلقها، ولأنها تريد أن تراه بأي ثمن فسوف تتوهم أشياء

وسوف يستقر منها العزم وتفكر: أنه بحاجة إلى.... إنه في خطر بسببي أنا، ويسبب ما رويته له عن موت أبوي. وسوف تتذكر حديثهما والأسئلة التي ألقاها عليها «عن الصخرة الكبيرة»، وإذا كان هذا الصحفي الظريف لم يف بوعده فذلك بسبب بيت الصخور بلا شك. وإذا كان قد حدث له حادث. إذا كان قد وقع. لابد وأن تمضي لنجدته. سوف تغادر القصر وتسرع إليه. وسوف تقع بدورها في الفخ. يا إلهي.

نهض رأوول وراح يدور في سجنه ورأسه ملتهبة. كلا. لا يجب أن يقع هذا بالذات، أنه يؤثل أن يموت. كان يفضل طبعا أن يلقي حتفه تحت الشمس لغرض نبيل بدلا من أن يحتضر كالفأر في قاع حفرة. ولكنه سيتقبل الموت في خزي كرجل عديم النفع... المهم أن تعيش لوسيل.

وتملكه اليقين فجأة من أنها سوف تأتي لكي تبحث عنه. وبسط يديه إلى الأمام كأنه يريد أن يصدها ويردها بعيدا عن هذه الحفرة البشعة حيث تنتظرها عظام أبويها. وتعثر ووقع على ركبتيه، وراح يردد في صوت خافت ليست أنت لوسيل... ليس أنت بالذات.

غلبه التعب والقلق والليل فتهالك على جنبه، وبقي مدة طويلة خائر القوى. وتغلب النعاس عليه أكثر من مرة. وكان نعاسا تخللته الكوابيس. ثم، ولأن اليأس وثبوط الهمة لا مكان لهما عنده خرج فجأة من هذا الخدر الذي قام مقام النوم، وصحا وامتلأ نشاطا، وتأهب لمواجهة

الخطر، ونظر إلى ساعته. الثامنة، لابد أنها الثامنة صباحا. يا للشيطان!. أن يفوتني العشاء فلا بأس ولكن الإفطار. ليس هذا من الصحة في شيء.

وكان يتكلم في صوت مرتفع ليفتعل قليلا من الشجة، ويقطع هذا الصمت الكئيب الذي لا يمكن مقارنته بأي صمت آخر. ولم يحاول تجديد محاولته ولكنه بدافع التحدي حاول أن يقوم في الظلام بتمريناته الرياضية التي يقوم بها كل صباح وهو يقول «فلأمت على الأقل وأنا في صحة جيدة» ثم رجع إلى الحفرة وجس الأرض. كانت الرمال قد استعادت مكانها من الحفرة ولم تعد هذه الأخيرة غير فجوة خفيفة لا عمق لها. لم تكن هناك في الواقع أية وسيلة أو جدوى في حفر نفق.... إن المنفذ الوحيد هو الباب القلاب ولا شيء آخر. وعاد إلى الدائرة الجهنمية لنفس المشاريع ونفس الإخفاقات وفكر «والآن... سأركز تفكيري في لوسيل. ولكن ما أغباني! ما أدراني أن هذه الصغيرة تحفل بي؟».

وجلس مرة أخرى وظهره إلى الجدار واسترسل في مونولوجه: إذا كانت لا تحفل بي فذلك لأنك لا تفكر فيها بتركيز كبير... ولكن مهما يكن فلا خيار لك... لا بد لك من أن تركز تفكيرك فيها وإلا فلا أمل لك، ركز فيها واعلم أن الحشرات تعرف بعضها البعض من مسافات كبيرة، وأنت أكثر من حشرة طبعا، فإذا أنت ثابرت وركزت مدة طويلة فسوف تحس بوجودك حولها، وسوف تطيعك بحيث تحتل أفكارها تلقائيا...

مرها أن تأتي هنا، وعندما تسمعها فسوف تصيح لكي تحذرها. ليست هناك وسيلة أخرى، ولكنني أحذرك. سيكون الأمر صعبا جدا... أقسم لي أنك لن تنام بعد الآن.

مد رأوول ذراعه وأفلت منه سبة، ثم عكف على التركيز. لم يكن ذلك صعبا جدا، بل كان يكفيه أن يلازم لوسيل في أفكاره وأن يتبعها في غدواتها وروحاتها، بين غرفتها وغرفة الطعام، وأن يمسك المقعد المستطيل معها في نفس اللحظة وأن يدعو بولوكس، وأن يعبر غرف الطابق الأرضي الفسيحة لكي يمضي إلى البستان ويجلس في الظل ويحلم في ذلك الغريب الذي ظهر في نفس اللحظة التي أصبحت فيها الحياة من الصعوبات بحيث لا تطاق.

ووخز رأوول ظهر يده ... أهذا ما يقولون عنه تبادل الخواطر. ولكنك تغفو يا صديقي، هيا انتبه وقم. إنها هي الأخرى تقوم وتمضي لتقطف بعض الزهور .. إنها تشعر بقلق مبهم ... بسببك أنت، لأنه بدا لك أنك تفهم كيف مات أبواها .. وهي تمضي وقتها الآن في التفكير .. إنه يعرف شيئا، وتنظر إلى الساعة في غير انقطاع.

أضاء راوول مصباحه وأخرج ساعته، وذهل. الظهر.. هكذا حالا.. إنها ستجلس الآن إلى المائدة مع عمها. إنها تجلس أمامك في تلك الغرفة الكبيرة، وهي لاتشعر بالجوع. رآها في وضوح عجيب. كانت تدعك كرة

من لباب العيش بيديها الرقيقتين، وجاءت أبولين بطبق من السمك لأن اليوم كان يوم جمعة ورائحة القبر جعلته يشعر بأن قواه تخور .. أربع وعشرون ساعة لم يذق فيها شيئا. وكان يقول: هيا، جهد صغير آخر. إن هذا السمك لذيذ، ثم إنك بحاجة إلى أن تسترد قواك، إذا كان ولابد أن تستقلي الدراجة حتى هنا. كانوا يتناولون الطعام على مهل، وكان الوصي، من وقت لآخر، ينطق ببعض الكلمات. ودقت ساعة الحائط تشير إلى الواحدة، ساعة تناول القهوة. كان حلق راوول جافا. كان يركز في هذه اللعبة الرهيبة بكل كيانه وصعدت لوسيل غرفتها وراحت تصغى إلى أصوات القصر. صوت محرك السيارة وهي تنطلق بعمها، وبعد قليل ستهتم أبولين بغسل الأطباق . الساعة الثانية . الثانية والنصف!

تشنج رأوول. سوف يتقرر كل شيء الآن. لوسيل تخرج من القصر من غير أن يراها أحد، وهي تخرج وتصل إلى المكان الذي تواعد معها فيه .. الساعة الثالثة .. آه يا لوسيل .. ركزي بدورك وفكري معي .. فكري في بقوة أكثر .. إذا كنت لم أستطع موافاتك فذلك لأنني وقعت أسيرا . أسير .. كان يجب أن يبعث بالكلمة مع الريح .. كما لو كانت برقية . لو أنها استطاعت أن تتلقاها فإنها سوف تأتي. أنا أسير. أسير .. وتوتر جسده وراح يحرك شفتيه. كان يسمع الكلمة تندفع منه وشيئاً فشيئا أحس بالوهن .. تفرغ من كل طاقته، وجاءت اللحظة التي اضطر

فيها أن يتوقف كالمصاب ينزف آخر قطرة من دمه. والآن، على لوسيل أن تبادل بالعمل... لم يعد لديه أي وقت لإرشادها ... إما أن تكون في الطريق إليه الآن وإما فالموت هو الذي يقترب منه. ولكنها في الطريق إليه حتما لأن الأمور لا يمكن أن تمر بغير ذلك.. لأن أرسين لوبين لم يخلق لكي يموت وأدا كالدودة. كان لابد من المقاومة .. المقاومة .. لا جدوى من النظر إلى الساعة ومن أن يتعجل الوقت. لابد أنه يمشي كالحصان العجوز الذي يدور حول الساقية دون أن يفكر في أي شيء.

وراح يمشي مكدودا، واهنا، يغوص بقدميه في الرمل وإحدى يديه على الحائط، ويدور حول الهيكلين العظميين. وجه كل أرادته إلى المشي. لو حدث لسوء الحظ ووقع فهو هالك لا محالة. لن يجد القوة لكي يصرخ عندما تأتي لوسيل وتتقدم نحو الفخ، لأنه لم يشك لحظة واحدة في أنها سوف تأتي. ربما ليس في اللحظة القادمة وإنما في اللحظة التالية لها. وراح يتنفس بقوة ويلوك الرمل الذي راح يصر تحت أسنانه وارتجفت ساقاه ووقع على إحدى ركبتيه، وراح يدلكها مدة طويلة. ممنوع النظر إلى الساعة. كان هذا أسوأ إغراء. أما الباقي. الجوع والعطش فكان لا يزال في مقدوره احتمالهما، ولكنه إذا استسلم ونظر إلى الساعة ووجد أنها قد بلغت السادسة مثلا، فسوف يتمدد عندئذ وينتظر النهار لأنه كان قد حسب، دون أن يعترف، الوقت اللازم للقدوم من يونرفيل بالدراجة. وبذل جهدا

كبيرا وأجبر نفسه على الوقوف.

وسمع الصوت عندئذ فتجمد مكانه لفرط الذهول. هذه الطقطقة معناها أن شخصا يطأ الحصى. ووضع يده على فمه مشدوها مغمض العينين، واستجمع كل قواه لكي يتمكن من تحليل الصوت الخافت الذي ربما كان صوت دمه وهو يصفر في عروقه. ولكن الصوت ازداد وضوحا وجلاء وجاء معه بالضوء وريح البحر ورعد الحياة كاصطدام بعيد لصخرة تعلن لعامل المنجم المدفون أن النجاة قريبة، ولكنه كان يعلن على الخصوص انتصار رأوول، فهو وحده، ضائع لا سند له ولا معين، وبقوة إرادته فحسب، أو ربما بكبريائه، استطاع، مرة أخرى أن يجبر القدر. وغمره إحساس عظيم بالفرح وتصاعدت الدموع إلى عينيه .. وهكذا، بكى الرجل الشديد الثقة بنفسه.

وأرسل الباب صريرا وطقطقت الأرضية فوقه، في هدوء. وعندئذ صرخ بكل قوته، رغم جفاف حلقه وصاح:

أهذه أنت يا لوسيل؟ .. هي أنت، أليس كذلك؟

ومن بعيد أجابه صوت الفتاة: نعم.

حسن. لا تتحركي. أين أنت الآن بالتدقيق؟

أمام المنضدة.

يا للفتاة المسكينة! كانت تنظر إلى الأطباق وتحاول أن تفهم.

هل ترين الستارة يا لوسيل؟ إن الفخ خلفها مباشرة .. نعم .. باب قلاب ينفتح إلى أسفل عندما تدوس عليه القدم.

هل أنت مصاب؟

يا للوسيل الرائعة! .. كان صوتها ينطق بالقلق .. قلق كانت تجهل معناه ولكن رأوول اكتشفه وهو يرتجف.

ابتعدت الخطوات، ولم يلبث أن سمع صوت أشياء تتحرك. وعرف أن عذابه أوشك أن ينتهي، وعندئذ أقدم على شيء أثار دهشته هو بالذات، فرغم تعبه وجوعه، ورغم أنه كان مشرفا على الموت منذ لحظات فقد نفض الرمال عن ثيابه وأصلح من هندامه وعدل رباط رقبته وثنية بنطلونه «يجب أن أحافظ على مظهري، وإن كنت بحاجة إلى أن أحلق ذقني، ولكن لا بأس بي. تذكر أنك صحفي ...»

وسمع ارتطام السلم بالمقاعد واحتكاكه بالأرض فصاح:

هل أنت متأهبة؟

نعم.

وبالطريقة التي نطقت بها الكلمة كان من السهل أن يفهم أن الجهد الذي بذلته تجاوز طاقتها.

هذا حسن. إنك قمت حتى الآن بأصعب جزء وبقى شيء بسيط، ارفعي السلم من طرفه الذي من ناحيتك وادفعي الطرف الآخر كما لو

أنك تريدين أن ينزلق من تحت الستارة. سيقع طرف السلم فوق الباب القلاب ويدفعه إلى أسفل. هل فهمت ما أعنيه؟. هيا. على مهل.

احتكت حافة السلم بالأرضية، وفجأة انخفض الباب وتسلل داخل الحفرة ضوء منحرف.

توقفي الآن .. انتظري قليلا.

وانتهز رأوول فرصة الضوء الخافت واقترب من الهيكلين وتمتم: معذرة، ولكن لن يزعجكما أحد بعد اليوم.

وأهال فوقهما الرمال بملء يديه حتى غطاهما تماما وهو يقول:

ذلك لكي لا تراكما، فارقدا في هدوء. سوف أرعاها وأهتم بها، وأعدكما بذلك. إنني أعرف فيم تفكران ولكنكما مخطئان، سأرعاها أبويا كصديق حميم، وسأحبها قليلا كحبيب. سأكون منذ الآن وصيا عليها، أما الآخر فما هو ألا مغفل. وداعا.

وقالت لوسيل: ماذا أفعل الآن؟

حسنا. ارفعي السلم وأنزليه في بطء.

بعد ثلاث دقائق كان رأوول يضع قدميه من جديد في دنيا الأحياء. ورفع السلم فانطبق الباب. وأمسك بيد لوسيل وقال:

لنسرع بالخروج، فإننا نختنق هنا.

كانت الشمس لا تزال في الأفق، والبحر يهدر، ولم يكن هناك أحد

على مرمى البصر. وقال: لولاك لقضى على. ولكنني اكتشفت شيئا هاما والفضل لك أنت .. قولي لي .. خلال الشهرين الأخيرين، ألم يداخلك إحساس بأن هناك خطرا يحلق فوقك. ألم يقع شيء يثير مخاوفك؟

كلا .. لا أرى .. ولكن هناك طبعا حادث المركبة ...

آه .. ولكنه كان مجرد. عجلة تحطمت في أخدود وطرحت أرضا. لو أن الجواد كان مسرعا لكنت من الهالكين، ولكنه كاد يمشي خببا على عكس عادته.

ومتى حدث هذا؟

منذ ثلاثة شهور .. وأنت ترى أن ..

طبعا .. لقد كان حادثا مدبرا.. كغيره من الأحداث الأخرى، وليس صدفة أن يختفي أصحاب القصر تباعا. وكان أبواك آخر الضحايا.. تشجعي يا لوسيل.

توترت يد الفتاة على يده وتمتمت: إنهما هنا؟ .. أليس كذلك؟

نعم، كان القاتل يعرف أنهما يأتيان كل سنة في الذكرى السنوية لأول لقاء لهما. وقد أعد الفخ بعناية ومهارة كبيرين، ومن الذي لا يصدق أنهما غرقا... والدور الآن دورك أنت.

تعلقت لوسيل بذراع رأوول وقالت: ولكن هذا شيء فظيع.

واستطرد رأوول: وبعد أن يتخلص منك سيعتدي على عمك

بدون شك ... دائما بنفس الدهاء ونفس المصير حتى لا يشك أحد في الحقيقة. أنتم جميعا في خطر كما كنت أتوقع.

ولكن لماذا؟ .. لماذا؟ .. نحن لم نؤذ أحدا.

فكر رأوول لحظة ثم قال: لو أستطيع الإقامة في القصر، في جواركم، فسوف أعرف السبب سريعا.

قالت لوسيل: ليتك أتيت قبل اليوم بثمانية أيام، فلعلك لا تعرف أنه يوجد بالقصر مكتبة كبيرة جدا، بل إن لها شهرة بين الأوساط الأدبية، ولقد لحق عمي بخدمته في الأسبوع الماضي سكرتير لكي ينسق ويبوب كل تلك الكتب ويضع لها فهرسا ... صفوة القول سيأتي بعد أربعة أيام.

صاح رأوول: ولكن هذا رائع. وهل يعرف عمك هذا الرجل؟ هل ألتقيا قبل اليوم؟

كلا، فقد تم الاتصال بينهما عن طريق نشرة في إحدى المجلات الأدبية ... كان مسيو ليونس كتارا يبحث عن وظيفة.

هل تذكرين عنوان هذا السيد؟

نعم، فأنا التي حررت المكاتبات . ليونس كتارا، 12 شارع باتنيول بباريس.

ومتى يجب أن يصل؟ يوم الثلاثاء.

تأبط لوبين ذراع الفتاة وسار معها في طريق الصخور، وقال:

حسناً. سوف أدبر طريقة للدفاع بمعاونة هذا الشاب فإنني أخمن أنه

ظريف وأنه سيتعاون معنا.

لن تقع أية حوادث أخرى بعد الآن ... أعدك بذلك.

قالت لوسيل فجأة في شئ من التردد: ولكن من أنت بالذات؟

انفجر رأوول ضاحكا وأجاب: تروق كلمة «بالذات» هذه.

تصوري يا عزيزتي لوسيل أنني أنا نفسي لا أعرف من أنا. إن الصحفي رجل له مائة وجه، ولابد له من ذلك إذا أراد أن ينجح في هذه المهمة الصعبة. إنني أجيء وأروح وأنقب وأتنكر وأضيع قليلا في كل هذه المتاهات ... ولكي أكون صريحا معك، فإنني أشعر أنني سأتقمص جلد هذا الليونس كتارا رغما عني، لا لشيء إلا لمحاكاته وللسعادة التي سأشعر بها وأنا أقيم بجوارك.

اصطبغ وجه لوسيل بطريقة طابت لرأوول وتمتمت تقول:

أنت رجل محظوظ . لأنك حر .. لا يجب أن تقدم حسابا لأحد عما فعلت في يومك .. يخيل لي أنني لن أشعر بالمرض أبدا إذا كانت لي القدرة أنا أيضا في أن أكون .. ولكنني أنطق بحماقات.

حماقات ! .. أبدا .. أنت لم تكوني عاقلة قط كما أنت اليوم .. إن الملل هو الذي يضنيك ويؤرقك يا عزيزتي لوسيل .. ولكنك لن تشعري بالملل ولا بالضجر وأنا بجوارك، وأقسم لك على ذلك .. فكري في مغامرة اليوم.

توقفت لوسيل عند أول منعطف للطريق والتفتت إلى الكوخ الذي أوشك أن يختفي عن الأنظار.. ووضع رأوول يده في رفق كبير على عينيها وقال: لا يجب أن تنظري إلى الخلف أيتها الفتاة العزيزة. إن أبويك يرقدان في القبر الذي كانا يتمنيانه.. ثم لا يجب أن يعرف العدو أننا اكتشفنا شيئا .. هيا، تعالي. سأوصلك إلى مداخل يونرفيل.

ومضى فجاء بسيارته ووضع الدراجة بداخلها ثم أجلس لوسيل بجواره. وسألته: هل انتابك الخوف؟

كنت على يقين من أنك ستأتين.

وإذا كنت لم آت؟

أنا الذي ألقى الأسئلة .. إنني لا أستجيب لها أبدا.

انطلق رأوول عائدا إلى باريس، وطبقا لعادته، كان يلتهم الطريق التهاما.. تلاشى تعبه وإرهاقه تقريبا، فبعد أن غادر لوسيل عرج على حانة وتناول شطيرة بالجامبون وشطيرة بالتفاح وثلاثة فناجين من القهوة، ودب النشاط في جسمه وأحس بالسعادة. لم يكن هناك ما يعكره غير شيء واحد هو البارون أو بالأحرى سر البارون، لأنه كان هناك خلف البارون شخص آخر يعمل. لم يكن البارون غير عميل يعمل في خدمة رجل آخر خفي خليق بأسوأ الفظائع ولكنه لا يتمتع بذكاء خارق والدليل على ذلك حوادث يونرفيل ومغالاته في العذاب الذي

فرضه على جاك فيرانج وزوجته، فقد كان هذا ينم عن ذكاء عادي، قاس لا يرحم وصبر فظيع.. صبر العنكبوت وهو يعد خيوطه والثعبان وهو يترقب فريسته وحيوانات الليل التي تضرب دون ما صوت، بمجرد أن تتخلى فريستهم عن يقظتها وحذرها. وإذا لم يحترس هو نفسه فسوف يتلقى الضربة، إن لم يكن في شخصه هو فسوف يتلقاها بلا أدنى شك في أعز الناس لديه.. في لوسيل.

وزمجر يقول يحذر العدو الخفي: إياك أن تلمسها ... أنا، لا بأس بي، فإنني أستطيع أن أدبر أمري دائما، أما هي ... لو أصابها شيء فلن يمنعني أي شيء بعد ذلك .. ودفعه غضبه الوليد إلى أن يترك العنان لسيارته فاندفعت في الطريق كحجر المنجنيق. وبلغ باريس في نحو الواحدة صباحا ومضى إلى مسكنه ببوليفار بيرير وأسرع إلى الحمام، وبعد أن اغتسل تناول وجبة أخيرة ثم أوى إلى فراشه وهو يقول: ارقدي في هدوء يا عزيزتي لوسيل. إن ملاكك الحارس ليس بعيدا.. سيخلد إلى الراحة بدوره، فلابد للملائكة من النوم من وقت لآخر.

وفي أصيل اليوم التالي، وبعد أن تناول ليونس كتارا غداءه المتواضع، غادر المطعم المتوسط الذي يتناول فيه طعامه في العادة، وراح يفكر في حزن وهو يمسح شاربه في الوجبات المتواضعة التي لابد له أن يتناولها طوال حياته التي تخلو من البهجة. وكان متجهما

وهو يعبر الشارع ليشتري جريدته، وسمع صريرا حادا صادرا من فرامل مضغوطة بشدة جعلت القشعريرة تسرى في جسده، وتوقفت عربة فارهة أمامه وكادت أن تلمسه. وارتجف وفقد توازنه ووقع على ركبتيه. وتحامل واقفا وهو يستند على الراديا تور الملتهب. وكان السائق قد هبط مسرعا وعاونه على الوقوف وهو يقول: أنا آسف.

تمتم كتارا: أنا المخطئ، فقد كنت شارد الذهن.

معذرة ... بل أنا الذي كنت مسرعا.

مهما يكن فلم أصب بأي شيء.

ولكنني لست متأكدا ...

هأنت ترى .. لست مصابا بأي جرح.

هناك الجروح الداخلية، وهو أشد خطرا. تعال معي.

أين؟

عند طبيبي ... أريد أن أطمئن تماما.

ودفع الرجل كتارا المسكين داخل سيارته رغم احتجاجاته الخجلة، وأبدى السائق نحوه اهتماما شديدا ورعاية أكبر، ولكن كل هذا لم يمنعه من أن يسوق بجرأة وسرعة مما جعل السكرتير المسكين يرتجف رعبا وقلقا، وبلغا نويلي في طرفة عين وتوقفت السيارة وهي تئن أمام احتجاجاته.

ليس بي شيء.. يؤسفني أن أتسبب في كل هذا الضرر.. أنت رجل

كريم جدا. ووجد نفسه في غرفة نورها خافت وفيها أجهزة معقدة، وراح الممرض ينضو عنه ثيابه بالقوة.

وفي أثناء ذلك، دخل صاحب السيارة مكتب الطبيب ورفع نظارته عن عينيه وأخذ مقعدا وقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة:

احتفظ به يا صديقي.. ضعه في الجبس لمدة ثلاثة أسابيع .. رعاية ممتازة .. شمبانيا ودجاج وكل ما يريد .. وكذلك كل ما ترفض له أي طلب .. ولكن بما أنه فقير وبما أن فقره سيمنعه من تمني أي شيء فحاول أنت أن تتمنى مكانه.

وفتح محفظته وأخرج منها رزمتين من الأوراق المالية ألقاهما فوق المكتب وهو يقول: هذه من أجل معدات الأشعة الجديدة . وهذه لمريضك بعد أن يشفى. من طرف السائق الذي أصابه. سيكون من الغباء بحيث يتردد كثيرا، ولكنه سوف يقبل في النهاية.

ونهض ثم انحنى وأردف يقول في صوت خافت: آه. كدت أنسى أهم شيء. إنه سيكتب خطابا للسيد هوبير فيرانج بقصر يونرفيل .. هذا الخطاب لا يجب أن يصل .. تذكر جيدا.. قصر يونرفيل .. عليك أن تلقى به في النار.

الاختطاف

أثار الخبر الذي نشرته جريدة «ايكو دي فرانس» أكبر الاهتمام. كانت الأجازات على الأبواب والجرائد تعاني كسادا لقلة الأخبار التي تهم الناس، وعلى الرغم من التوتر السياسي.

وعلى الرغم من الأنباء التي تقول إن المانيا تتسلح من جديد والتي يتناقلها الناس في كل مكان من أوروبا تقريبا، فلم يكن في استطاعة الصحفيين إرضاء قرائهم لأن الأخبار كانت عادية ولا أهمية لها، ولهذا كان امتنانهم كبيرا نحو جاستون سيرول قبل تشييع جنازته، فنشروا مراحل حياته الغامضة وامتدحوا فضائله المتواضعة وأكدوا أن رجال البوليس سوف ينتقمون لمقتله.

وقد كتبت الجريدة تقول: «والمفتش جانيمار يتتبع أثرا هاما، وقد التقينا به في أحد الممرات بإدارة البوليس وقال لمراسلنا ردا على أسئلته أنه سيكون هناك جديد بعد ثمان وأربعين ساعة، وأردف يقول بطريقة

غاضمة: ربما نتحدث عن رجل نسيناه بعض الشيء، ويعتقد البعض منا أنه مات، ولكنني كنت أضعه نصب عيني، ولما سأله مراسلنا إن كان يريد أن يتكلم عن أرسين لوبين، عدوه اللدود السابق، اكتفى بأن رفع أصبعا إلى فمه وقال: من يدري».

وكان اهتمام الناس كبيرا حقا. وقال الماكرون منهم: إن الجرائد تعمل على أن ننسى تسليح ألمانيا وقال بعض الملمين بالأمور أكثر من غيرهم «مسكين جانيمار. ما أن يقع على معضلة صعبة حتى يتهم لوبين» ولكن الفضوليين العاديين اهتزوا طربا وهم يقولون: سوف نضحك قليلا. وقد كانوا في حاجة إلى ذلك حقا. وانتقلت من فم إلى فم خلال البلد همسة كبيرة تقول: أرسين لوبين لم يمت .. أرسين لوبين يعود.

دعك رأوول دابنياك الجريدة بين يديه وألقاها أسفل فراشه.. المفتش العام جانيمار يتتبع أثرا هاما .. ماذا؟ .. أيكون قد اكتشف أمر البارون هكذا حالا؟ محال. لقد اقتضى الأمر مني أنا، لوبين، ربع ساعة. وكنت أملك عناصر لا يملكها هو ... لابد له من ستة شهور على الأقل .. هذا إذا خدمه الحظ. كلا، كلا .. إنه يلف ويحاول أن يجتذب الأنظار إليه .. وهذه حيلة لا تنطلي على.

ولكنه كان مكتئب المزاج عندما دق الجرس يستدعي خادمه، وكان مكتئب المزاج وهو يأكل البيض بالجامبون. وعندما أشعل أحد

سجائره الهولندية المصنوعة خصيصا من أجله لم يكن قد استعاد مرحه وحيويته المعروفين عنه. لم يكن يريد أن يدس البوليس أنفه في مشكلة يونرفيل، فقد كان كفيلا بأن يفك رموزها وحده. أما البارون فلا شأن له بهذه المشكلة هو الآخر، فإن الصيد صيده هو ولا يجب أن يتدخل فيه أحد غيره، ولهذا عزم على أن يكتب لجريدة أيكو دي فرانس، فإن الكلمة التي ذكرها جانيمار جرحت كبرياءه.. رجل نسيناه بعض الشيء.. آه، كيف يتكلم بهذه اللهجة.. حسنا سوف يرى.. رجل نسيناه بعض الشيء.. ما هذه الوقاحة .. لقد حدث نفسه أكثر من مرة فقال «سأكون في القصر، بجوارها، بعد ثلاثة أيام، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك». ولكن اليوم كان رديئاً، من تلك الأيام المكفهرة التي يسوء فيها كل شيء، حيث ماء الدش ساخن أكثر من اللازم، وحيث تضيع أزرار القميص وحيث تعكس لك المرآة وجها تعلوه تفضنات المشيب.

ولبس رأوول قبعة خفيفة وأخذ العصا التي يأخذها معه عندما يخرج للنزهة وخرج. سوف يجد حريته في الخارج أكثر لكي يكتب ردا لاذعا للسيد جانيمار. ويمم نحو الغابة. والواقع أن ذلك الغبي العجوز كان على حق، فمنذ شهور والشعب محروم من تلك المقالات المرحلة الطريفة التي طالما خدمت أسطورة أرسين لوبين. وحدث رأوول نفسه فقال «إنني كنت أعلن عن مغامراتي مسبقا في الماضي وأعلق عليها. صفوة

القول، كنت ألهو كما أشاء.. ولعمري لقد كنت شابا.. ولكن الزمان كان يتلاءم مع ذلك. كان الناس أكثر مرحا. يجب أن أهتدي إلى الوسيلة لتجديد إحدى هذه المغامرات التي تثير إعجاب الناس ودهشتهم».

كان غارقا في تأملاته هذه بحيث لم يبد أي اهتمام للرجلين اللذين يسيران خلفه واللذين راحا يقتربان منه شيئا فشيئا. وفجأة أحاطا من جانبيه. وتوقف رأوول وهو يقول: آه .. ما هذا؟

وظهر أمامه رجل ثالث، وانضم إليهم رجل رابع ضغط على ظهر رأوول بماسورة مسدسه قائلا:

لا تقاوم يا رأوول دابنياك. إنني ألقى القبض عليك باسم القانون.

تم كل هذا بسرعة مذهلة تتفق تماما مع مشاغل رأوول بحيث إنه انفجر بالضحك وقد استعاد مرحه وقال:

حسنا يا جانيمار ... ولكن لماذا هذه التكشيرة البغيضة. نعم. أنا رأوول دابنياك .. أنا هو .. أعنى ذلك الشخص الذي أوشكت أن تنساه... ولكن اضحك وابتهج أيها الصديق العزيز ... أنك كسبت المعركة، ولك أن تمرح وأن يأخذك الطرب ولو مرة في حياتك.

وهزه المرح واستطرد يقول مثيرا دهشة رجال البوليس الذين أحاطوا به: آه. لن أنسى لك هذا أيها العزيز جانيمار.. تأتي هكذا خلف ظهري وتستنجد بثلاثة رجال لأنك لست مطمئنا إلى نفسك .. وتستخدم

الوسائل الكبيرة والصوت الخطير: رأوول دابنياك... أنني القي القبض عليك .. وعندئذ يلتفت السيد دابنياك ويستولى عليه الخوف. وأخيرا ها هو دابنياك .. إنه هو نفسه لوبين .. أمسكوه أنتم الآخرون.. أسرعوا واسندوه .. ألا ترون إنه سيغمى عليه. إنه لم يعد شابا كما تعرف وقد تسببت له في الكثير من المشاكل والانفعالات. ماذا؟ .. الإصغاء؟ .. لي أنا؟ .. ولكنني لا أطلب إلا أن أتبعك. كنت أقول لنفسي بالذات يجب أن أثبت مقدرة هذا المسكين جانيمار، فسوف يعينه ذلك على الترقية. هل تسمح أن أجفف عيني؟ ليس الذنب ذنبي إذا كنت أبكي لفرط الضحك. آه. هناك سيارة أجرة تتبعنا.. أنها تتبعنا، أليس كذلك؟ ان هذا الذكي جانيمار يفكر في كل شئ. لكم أن تستمعوا أيها السادة. حسنا، تفضلوا .. بعدكم .. كلا .. هذا صحيح فأنا ضيفكم .. أيها السائق، إلى إدارة البوليس.

زمجر جانيمار: أيها الوغد، سوف تتخلى عن عجرفتك هذه بعد قليل. سوف أعلمك أنا كيف تقتل أمناء المكتبات.

لانك تتصور أنني .. آه. هذا غريب جدا. ولديك دليل طبعا .. أعنى دليلا أكيداً قاطعا، لا يقبل الجدل.

ليس لدي دليلا واحدا... وانما دليلين.

عرف رأوول هذين الدليلين في اليوم التالي عندما مثل أمام قاضي

التحقيق فورميري. كان قد استجم تماما، وعاد يشعر كأنه صغر عشر سنوات. ولهذا خضع للاستجواب عن طيب خاطرز ولكنه وضح موقفه على الفور بأن قال: لن نتكلم عن أرسين لوبين فالمعروف أن بصماته اختفت من ارشيف البوليس القضائي منذ وقت طويل، ولهذا لا يحق لأحد أن يزعم أنني لوبين خاصة وأن المقارنة تطربني كل الاطراء.

ولكن المفتش العام جانيمار ...

اذا أردت الحقيةق يا سيدي القاضي فانه يخرف. أن لوبين مات والجميع يعرفون ذلك.

ليكن. آه. أريد أن أقول. لنفرض انك لست لوبين فان هذا لا يمنع انك قتلت ذلك الرجل التعس. أمين المكتبة. فمعي، اولا، خطاب توصية ممهور بتوقيع جابرييل تابارو يوصى فيه براوول دابنياك لسكرتير شركة نورماندیا للتاريخ والآثار، ولست بحاجة إلى أن أقول لك أن جابرييل تابارو، عضو المجمع والضابط بفرقة الشرف لم يكتب هذا الخطاب اطلاقا.

ولكن ...

انتظر. وهناك ايضا سلاح الجريمة.. عثر البوليس على مسدس القاتل بجوار الجثة وتنقصه رصاصة، وهي نفس الرصاصة التي أستخرجت من جثة جاستون سيرول. وتقرير الخبراء في هذه الناحية أكيد، ثم أن مقبض المسدس عليه بصمات واضحة. وهي بصماتك أنت يا مسيو دابنياك.

كيف؟

اقول لك ان بصماتك التي اخذناها أمس هي نفس البصمات التي رفعناها عن المسدس .. وهذا يعني أنك أنت القاتل دون أي نزاع.

تراني شديد الجزع لذلك.

عفوا؟

من ناحية، أنت متأكد أنني لست رأوول دابنياك.

طبعا.

ومن ناحية أخرى لا تتردد في اتهامي بارتكاب جريمة قتل؟

طبعا.

إذن فأنا لا أدري أين أنا بالذات، لأنني أقسم لك أنني لم أقتل أحدا، فبصفتي لوبين فإن يدي غير ملوثتين بالدماء، ولهذا فإنني أتساءل إذا لم أكن لوبين.

صاح القاضي: لا أسمح لك بالمزاح.

قال رأوول متساهلا: مهلا .. إنني معك في أن هذين الدليلين مثيرين للقلق، ولكن شيئا من اثنين، إما أن أكون لوبين أو لا أكون لوبين. هل أنت معي؟ فإذا كنت لوبين فأنت تعلم طبعا أنك لا تستطيع احتجازي في السجن.. اتفقنا؟ .. غدا سأكون هربت إذن. ولكن إذا هربت فسوف يكون ذلك دليلا على أنني لوبين بالطبع. ولما كان لوبين لا يقتل فسوف

أثبت براءتي. وهذا الاستدلال يبدو معقدا بعض الشيء طبعا، وأرى يا سيدي القاضي أنك تشعر كأنك تائه.

صاح فورميري: كفى.

حسنا .. حسنا .. لا داعي للغضب.

آه، ليس لدي الآن أي شك .. أنت لوبين طبعا.

في هذه الحالة يؤسفني أن أودعك بعد قليل.

هذا ما سوف نراه.

إذا بقيت في السجن فلن أكون إلا رأوول دابنياك عندئذ.

كان القاضي يكاد يستشيط غضبا في حين كان رأوول يبتسم.

وكان الكاتب يصغى فاغرا فمه. وصقل رأوول ثنية بنطلونه وعقد يديه على ركبتيه وقال: سيدي القاضي، أرجوك أن تصغي إلى .. مهما يكن فأنا هنا لمساعدة العدالة، وفي هذه اللحظة، مع هذا الإيقاف المضحك فإنك تحول بيني وبين اللحاق بالقاتل الحقيقي ومن تسليمه لك. ليس لدى الوقت للبقاء في السجن، أفلا تريد إطلاق سراحي حقا؟

قال مسيو فورميري وهو يكاد يختنق: أعيدوه إلى السجن.

دقيقة واحدة. أنت تعلم تماما أنني اتخذت احتياطاتي يا سيدي القاضي، ولهذا يجب أن أخطرك... أنني أعددت فراري مسبقا، وعليك أن تفكر في الأمر إذن.

وكان الحراس قد أمسكوه من كتفيه فتخلص منهم بهزة واحدة وقال: إنني أختار الأستاذ هنري يورناد محاميا لي.

بعد ساعة من ذلك، وفي زنزانته بسجن السانتيه، كان لديه كل الوقت للتفكير. وكان لابد له من أن يعترف مرة أخرى بأن الموقف لم يكن جميلا، فإن العدو أدار اللعبة بكل حذق وعرف كيف يستغل أقل الهفوات. وكانت الهفوة الأولى إمساكه بالمسدس في بيت البارون، فقد كان الخادم يلبس قفازا، وكان المقبض قد مسح تماما وأوزيل ما كان عليه من بصمات، فهل كان الأمر مدبرا؟ أم أنهم استغلوا الموقف فحسب؟ .. صفوة القول، سرقوا بصماته بطريقا ما. كان العدو بعيد النظر، ويتصرف بدهاء كبير. أما الهفوة الثانية فهي احتفاظه بالخطاب الممهور بتوقيع تابارو بدلا من إتلافه، ولم يكن أمام البارون إلا أن يلتقطه في الليلة التي استولى فيها على المذكرات وفتش جيوب رأوول، وقد عاد بعد ذلك إلى مكان الجريمة، ولم تكن قد اكتشفت بعد، ووضع هناك الخطاب والمسدس، وبذلك تم توقيع لوبين على الجريمة، ولم يكن على البوليس إلا أن يقوم بالباقي، وهكذا غلب لوبين بأسلحته هو بالذات وأبعد عن ساحة المعركة وأصبح مضطرا إلى اللجوء للحلول اليائسة. وكان يتعين أن يتقدم بعد يومين إلى قصر يونرفيل متقمصا شخصية ليونس كتارا. وإذا تهرب الأستاذ يورناد فسوف يضيع كل شيء.

ولكن لوبين لم يكن يمقت الإحساس بالهزيمة، فأخرج من بطاقة جاكتته ورقة وقلما صغيرا أفلتا من التفتيش وبدأ يكتب خطابا لجريدة أيكو دي فرانس.

مرة أخرى انقلب ضجرا وسأما فوق فراش من القش الرطب بالسجن استمد [illegible] إغاظتي القوة لكي أعلن سخطي للملأ، فهم يتهمونني، أنا، أر[illegible] قتلت ذلك المسكين جاستون سيرول، كأنني وقد ط[illegible] سنوات لم أعد شبحا لا يستطيع إيذاء أحد. ولكن المف[illegible]انيمار، في عجزه عن القبض على الجناة الحقيقيين لا يتورع عن اعتقال الأشباح، ولهذا السبب، وعلى الرغم من نفوري من استغلال امتيازاتي كشبح أراني مضطرا لاختراق الجدران والعودة من العالم الآخر للانقضاض على القاتل وإرغامه على الاعتراف بارتكابه جريمته، ولن أتأخر عن إطلاع الجمهور بنجاح خطتي.

عفريت أرسين لوبين

وعندما حان موعد تناول العشاء دس رأوول الخطاب في يد أول حارس التقى به ومعه ورقة مالية كبيرة، وأسرع الحارس فأخفى الخطاب والورقة في جيبه.

وكان رأوول قد استخدم هذه الطريقة في ظروف أخرى مماثلة ولكنه في هذه المرة اعتمد على ارتشاء الرجل وربح، وكان أن ضج العالم في صباح اليوم التالي بالضحك.

كان الناس يتخاطفون الجريدة في الشارع، وراح الجميع يتخاطبون دون أن تكون بينهم سابق معرفة ويهنئون بعضهم البعض ... إنه هو حقا. كانوا يشبهون بالأمس في أنه على قيد الحياة .. سوف يغير هذا الكثير من الأمور. وتألقت العيون في انفعال يعبر بسذاجة عن فرحة الناس، فقد عاد المغامر ذو الابتسامة الساخرة، وأصبحت الحياة اليومية بما فيها من صخب وشقاء أكثر احتمالا، فقد كان هناك رجل بعيد المنال وفائق

المقدرة يضع مواهبه الفذة العديدة وذكاءه الخارق ومقدرته العجيبة في خدمة العدالة. وعلى الفور بدأت المراهنات، في المصانع، وفي الترام وفي الحانات وحتى في الأوساط البورجوازية. سوف يهرب .. لن يهرب. ولم يجدوا الوقت للجدل والنقاش لأن بيانا وجيزاً عرفوا منه في نفس المساء أن السيد رأوول دابنيال، المشتبه في أنه أرسين لوبين قد اختفى من السجن بطريقة غامضة، ولم تزد مدة سجنه عن ثمان وأربعين ساعة، ووجدوا مكانه محاميه الأستاذ هنري بورناد، فاقد الرشد وعاجزا عن تفسير ما حدث له.

وساد الجنون والانفعال، ونسى الناس كل شيء. نسيوا التوتر الدولي ومغامرات أوائل الطيارين وفضيحة كايو. آه. كانوا يعرفون وسائل لوبين عندما يتحدى، ومرحه الساخر وحيله العديدة وخياله الواسع الخصب. ولكن كيف تمكن من ذلك، وما هي التواطؤات التي ضمها إلى صفه في مثل هذه المدة الوجيزة، وبأية معجزة استطاع أن يتغلب على الرقابة الفعالة التي كان يخضع لها. وقد شرح لوبين لي بعد ذلك بمدة طويلة، وبعد موت الأستاذ بورناد طريقة فراره العجيب، وما زلت أسمعه وهو يقول: «كان يتعذر على أن أكشف الحقيقة عندئذ. ومهما يكن فأنا كالحواة لا أحب أن أكشف عن ألاعيبي، وكان ذلك الدور من الحماقة والبساطة بحيث يحمر وجهي خجلا وأنا أتحدث عنه».

وخيل لي أن وجهه يضطرم بالانفعال وهو يقول ذلك، مبتسما ابتسامته الساخرة المعروفة عنه، وانحنى نحوى بطريقة صبيانية وربت بيده على ركبتي في رفق وهو يقول:

لا تقل لي أنك لم تفهم .. كنت قد أعددت العدة لهذا الفرار منذ وقت طويل، بدافع الحرص لا غير. وقد حذرت ذلك القاضي المتزمت. كنت قد أعددت قراري مسبقا، تماما كما يعد المرء مبلغا من المال ويخبئه مسبقا لكي يواجه به كل الاحتمالات. وأنا مضطر أن أتوقع كل شيء، حتى حماقات البوليس، ولهذا فإن الأستاذ بورناد كان يعرف ما يتعين عليه أن يفعل بمجرد أن أطلب مساعدته.

واضطجع لوبين في مقعده إلى الوراء وراح يضحك تلك الضحكة الساخرة الرنانة بحيث طاب لي الاستماع إليها، واستطرد يقول وصوته يتهدج مرحا: ما كان المسكين بورناد ليرفض طلبا. ولكن هذه قصة أخرى. لقد أطلق بناء على تعليماتي شاربا كثا ولحية طويلة ملساء، وهي من الأدوات التي تصلح للتنكر. ولعل ذلك كان مزعجا ومضايقا له ولكنه كان ضروريا لي. وقد دخل زنزانتي في ذلك الصباح مرتديا معطفا واقيا من المطر، لأن الدنيا كانت تمطر، ويرخى قبعته فوق عينيه. وبعد نصف ساعة رأى الحراس رجلا ينصرف له شارب ولحية ويرخى قبعته فوق عينيه ويرتدي معطفا واقيا من المطر، ولم يخالجهم الشك لحظة

واحدة في أن ذلك الرجل هو خادمك الذي يحدثك الآن، فقد جاءه بورناد ببعض الشعور المستعارة. وهكذا نجحت الخطة.

وهو ؟

حسنا، قبل أن أنصرف لكمته في رفق تحت ذقنه، وكان هذا أمرا متفقا عليه من قبل، فما كان يجب لأحد أن يحسبه شريكا لي، ولهذا السبب لا زال جانيمار يتساءل حتى اليوم كيف استطعت أن أتنكر.

وانصرف لوبين بعد ذلك، وكان لابد لي من الانتظار سنوات طويلة قبل أن أراه ثانية.

في اليوم التالي لفرار لوبين تقدم رجل هزيل البنية ضيق الكتفين يرتدي جاكتة براقة فضفاضة ويضع على عينيه عوينات نحو الباب الحديدي لقصر يونرفيل. وكان أشيل هو الذي فتح له، وخاطبه الرجل في شيء من الخجل: أنا ليونس كتارا.

قال أشيل في شيء من التوتر: ولماذا أتيت من المحطة سيرا على الأقدام؟ .. كان في مقدوري أن آتي لاصطحابك. اتبعني أيها السيد. إنهم في انتظارك في غرفة المكتبة. أعطني حقيبتك. ورافق السكرتير حتى القصر وتركه مع مسيو فيرانج. وتأمل هذا الأخير الوافد الجديد في شيء من التسامح المتعجرف ثم قال:

هل تعرف ما أنتظره منك يا مسيو كتارا؟ .. لا ريب إن ابنة أخي قد

ذكرت لك ذلك. هل أنت على دراية بمثل هذا العمل؟

أظن ذلك .. نعم. آه، أخيرا، إنه ليس بالعمل الصعب.

أريد فهرسا أبجديا بأسماء المؤلفين وآخر بعناوين الكتب.

طبعا. لعل ذلك .. معذرة .. سوف يقتضي هذا العمل مدة طويلة.

لا أهمية لهذا. أنت هنا في بيتك يا مسيو كتارا.. وقتي لا يسمح لأن أريك القصر لأنه لابد لي من أن أمضي إلى المصنع، ولكن ابنة أخير سيسرها أن ترافقك ... لوسيل، هل لك أن تأتي لحظة؟

ظهرت الفتاة قادمة من الصالون، وما أن رأت السكرتير حتى بانت عليها أمارات خيبة الأمل. وبسطت له يدا رخوة في حين قام العم بالتقديمات.

حسنا. سأنصرف الآن يا مسيو كتارا، وستمضي بك لوسيل إلى غرفتك.

وودعه مسيو فيرانج بتحية جافة. وقالت لوسيل: تفضل، من هنا.

وتقدمته نحو الدرج، وأوشك أن يقول: لقد سبق لي أن أتيت.

وأحس بارتياح كبير وهو يصعد الدرج خلفها .. قبل ذلك ببضعة أيام كان موجودا في القصر يتغلب على خوفه أثناء صليل جرس الإنذار. أما اليوم فقد دخل القصر الكبير مدعوا. كان يعد هذه المتناقضات والمواقف المقلوبة، فقد كانت بهاء حياته الحافلة بالمغامرات، ولما كان يحب المداعبة بطبعه فقد استمتع مسبقا بالدهشة التي ستشعر بها لوسيل عندما يعترف لها أنه ليس كتارا وإنما ريشار ديمون الصحفي، وسار خلفها وهو

يتظاهر بأنه يلقي حوله بنظرات حافلة بالاحترام والإعجاب.

هذه هي غرفتك يا مسيو كتارا.. إنها تطل على الحديقة.

شكرا. إنها غرفة جميلة، وإنني أسمع العصافير. إنني أحب العصافير.

كان يحاول أن يبدو رجلا عاديا لا شأن له، مضحكا بعض الشيء.. وراق له كثيرا أن يشعر بأنه يتسبب في قلق الفتاة لأنه لم يكن ذلك الذي كانت تنتظره وأنها كانت تظن أن ذلك الصحفي الغامض الذي يشغل ذهنها لن يأتي بعد.

هل تريد أن تطوف بالقصر الآن، أم تؤثر أن تستريح قليلا.

بل أريد أن أتحدث معك.

وكانت لوسيل قد مشت نحو الباب، فتوقفت وتحولت نحو الرجل الهزيل الذي تغير صوته فجأة، وبدت الجاكيت الفضفاضة أنيقة عليه .. خلع عويناته وومضت عيناه خبثا وانحنى أمام الفتاة وهو يكنس الأرض بقبعة خيالية ويقول: ريشار ديمون في خدمتك.

ذهلت الفتاة ولم تدر ماذا تقول أو ماذا تفعل. هل يجب أن تضحك أو أن تغضب. وعقدت يديها على صدرها وراحت تتأمل في فزع تقريبا ذلك الوافد الجديد الذي ظهر هكذا فجأة ردا على ندائها الصامت كما يظهر الأمير في إحدى قصص الحوريات. وقال الصحفي:

آه، حسنا. ألم أعدك بأنني سأعود. بدا لي أنه أدعى إلى الحرص أن

أتقمص شخصية عادية، فإن أعداءنا يسهرون، وثقي بما أقول ... ولكن من ذا الذي يمكن أن يشتبه في كتارا؟

هل تتنكر كثيرا يا مسيو ديمون.

كثيرا جدا، لدواعي مهنتي، وأجرأ فأقول أنني أفلح في هذه المهنة، وسوف ترين.

وفي لمح البصر بدا أنه ينكمش وخبت نظرته تحت عويناته وتهدلت الجاكيت عند كتفيه كما لو كانت قد بليت وصم صوته وعاد إلى ثأثأته وتردده وهو يقول: هل أبدو ... إذا أردت أن تسمحي وتقبلي الوصف، هل أبدو كأنني شخص أخرق.

صفقت لوسيل بيديها وصاحت كطفلة في المسرح: مرة أخرى!

قال ريشار ديمون: كلا. أنسيت أنني هنا لعمل خاص. كفى هزلا.

ولكن أين وضعت ليونس كتارا الحقيقي.

صه.. في النفتالين .. اعلمي يا لوسيل إنه لا يجب استجوابي أبدا. ولك أن تطمئني من ناحيته.

وهل تعرف كيف تؤدي عمله؟

ولكنه من أبسط الأعمال وقد سبق لي أن أديت أعمالا أكثر صعوبة.

كان يبتسم. كان سعيدا بصورة غير معقولة. صوت صغير كان يعرفه جيدا كان ينفخ في أذنه ويقول: يا لك من ممثل! ألا تخجل من القيام

بدور ماريفو مع هذه الطفلة التي تبدي نحوك كل هذا الإعجاب؟ .. ما الذي يمنعك من أن تمشي على يديك في نفس الوقت وأن تسير بقدميك على الجدران؟ .. وكان يرد على نفسه فيقول: لن تتجاوز الأمور أكثر من هذا، وإني أقسم على ذلك. ولكن يجب أن تفهم أن الفتاة المسكينة كانت مريضة. تعاني من الوحدة وإنني في هذه اللحظة أرد لها صحتها وأعيد إليها الابتسامة وحب الحياة. ثم أنك تضايقني.

قالت لوسيل: سأريك القصر الآن.

لا تزعجي نفسك بمرافقتي .. وأرجو المعذرة .. إنني أوثر أن أكون بمفردي وأنا أطوف بالقصر.. وبهذه المناسبة ماذا من أمر برناردان؟

أجابت لوسيل: إنه لم يعد بعد، وقد بدأ القلق يساورنا من أجله. إذا طال غيابه فسوف يبلغ عمى البوليس، فلعل شيئا قد وقع له. إنني أعلم تماما أنه اعتاد أن يمضي ويأتي كما يريد. لقد كان يعتز دائما بحريته.

وهذا هو السبب بالذات. سوف يتملكه الغضب جدا إذا نحن أطلقنا الشرطة خلفه. صدقيني. من الأوفق الانتظار قليلا. استعملي نفوذك مع مسيو فيرانج، وسأرى من ناحيتي إن كنت أستطيع أن أفعل شيئا. آه. كلمة أخرى. عامليني دائما بتحفظ أمام الآخرين، وهذا أمر يسير طبعا فأنا لا أعتبر شيئا بالنسبة لك . لست هنا إلا مجرد شبح.. وخيال. لنفترق الآن.

ومضى إلى غرفة المكتبة وراح يتأمل في حزن وأسى جدرانها التي

تغطيها الكتب. كان أمامه أربعة عشر أو خمسة عشر ألف كتاب على الأقل، وعليه أن يقضى الأسابيع الطويلة في تدوين بطاقات لها. ولكنه لن يفعل ذلك طبعا فإن أمامه عملا أفضل، ولكن ماذا؟.. لم يكن يدري عم يجب أن يبحث، فلكي يصل إلى نتيجة فعالة لابد أن يكون الشيخ برناردان تحت يده هو والمذكرات. أما البارون فسوف يظهر إن عاجلا وإن آجلا، وعندئذ مضى رأوول إلى المعرض ودهش على الفور لسعته المتناسقه. كان عبارة عن قاعة كبيرة ينيرها عدد من النوافذ المرتفعة تطل كلها على فناء القصر، وثمة نقطة غريبة .. كان هناك في آخر القاعة جزء مسطح مرتفع أشبه بخشبة المسرح، ولعله كان مخصصا فيما سبق للموسيقيين، عندما كان صاحب القصر يقيم الحفلات الراقصة. وكانت مجموعة اللوحات رائعة يقف المتأمل أمامها طويلا. وكان رأوول قد سبق له أن رأى أجمل اللوحات على ضوء مصباحه الكهربي ولكنه كان يقف الآن أمام مجموعة نفيسة لا تقارن بغيرها من اللوحات وتستحق عن جدارة تركيب جرس الإنذار ووجود المسدس. وتملكه العجب وتقدم في بطء وهو يحاول أن يكتم وقع خطواته فوق بلاط القاعة المرمري ذي اللونين الأبيض والأسود المتعاقبين والذي بدأ كرقعة الشطرنج. كانت لوحات كثيرة، لرهبان وقساوسة متشابكي الأيدي وبعض رجال البلاط وهم يمتشقون سيوفهم وبجوارهم قضاة يبدو

التردد في عيونهم بين غيرهم من أصحاب الوجوه المتأملة والصارمة. كان يبدو أنهم يضيفون إلى صمت المكان سمة غامضة من الاستياء. وكانت هناك لحسن الحظ سجادة كبيرة يدل مظهرها على أنها تلقى عناية وصيانة كبيرتين، كانت تقطع رتابة تلك الوجوه الصارمة، نسجت بتلك السمات المزرقة التي تميزت بها المدرسة الفرنسية وتمثل بلاط الملك فرانسوا الأول، وفي بدايتها رقعة شطرنج والملك واقف يبسط يده لكي يمسك بيدقا في حين كان خصمه غارقا في التفكير. وكان الرسم في منتهى الرقة، وعند قدمي الملك تكوم تريبوليه وراح يداعب كلبا سلوقيا في حين بدا النبلاء يتمشون حولهم وهم يبسطون أيديهم لسيدات يرتدين ثيابا براقة. وكانت ثنية الثياب تبدو ثقيلة بعض الشيء وتدل على غشومية خرقاء ويكاد أسلوب النهضة ينفلت بالكاد من أسلوب القرون الوسطى. ولكن كان هذا المزيج المتوتر والطبيعي في نفس الوقت ينم عن شاعرية نادرة.

تراجع رأوول قليلا لكي يتأمل بطريقة أفضل ذلك المزيج العجيب ثم انتقل إعجابه إلى انسجام الألوان وتوافقها العجيب. كانت قطعة فنية رائعة لو أنه رآها في وقت آخر لظلت تلح عليه ليال طويلة.

وأفلتت من صدره زفرة وابتعد قليلا لكي يقف أمام لوحة للقديس جان بابتست.. جهد كبير بدون فائدة .. وبجوارها فارس جالس في

حانة يعب الشراب في صخب مع زميلين. كانت اللوحة مملوءة حركة ولكن رأوول لم يكن يحب اللوحات ذات الأبعاد الطويلة والأعمال الطموحة أكثر مما يجب. كان يفضل اللوحات الصغيرة كلوحة يعقوب الذي ينازل الملاك.

رباه! .. القديس جان .. ويعقوب .. ودارتنيان!

عادت كلمات الأب برناردان إلى ذهنه فجأة .. هل هذا ممكن؟

القديس جان بعد يعقوب .. ولحظ رأوول عندئذ أن المكان حول اللوحة التي تمثل القديس جان أفتح من غيره فارتد إلى الخلف. لم يكن هناك أي شك. كانت في ذلك المكان لوحة أخرى تغطي مساحة أكبر. وأطبق عينيه .. كم من مرة تجلت له الحقيقة فجأة وفي وضوح تام! وأحس بأن الحقيقة تتكشف أمامه في هذه اللحظة بالذات، وأنها ستنقض عليه كما ينقض الوحي على الفنان، وكل ما عليه هو أن يبقى مكانه وألا يتحرك وأن يترك لذهنه العنان لكي يهتدي إلى السر الغامض الذي يحاول أن يتبدى له.

القديس جان يخلف يعقوب ... القديس جان يخلف يعقوب .. حسنا، وبعد .. آه، أظن أنني فهمت.

وأنزل اللوحتين من مكانهما وعلق لوحة يعقوب مكان لوحة القديس جان. وغطت اللوحة الأخيرة الجزء الفاتح من الحائط تماما.

وهكذا كانت لوحة يعقوب هي التي كانت تشغل هذا المكان فيما سبق، وقد خلفتها لوحة القديس جان.

وإذن؟ .. والفارس؟ .. دارتنيان .. ما دوره في كل هذا؟.. انطفأ الوميض السريع الذي تألق فجأة وسط الظلمات وتوترت كل أعصابه وراح يفكر. كان هذا غباء كبيرا.. أن يلمس بأصبعه شيئا على جانب كبير من الأهمية ثم يعود فيتخبط من جديد.

وفجأة، عرف بغريزته أنه ليس وحده فرفع عينيه في غير مبالاة إلى فترينة تضم مجموعة من النياشين ولكنه لم يحفل بالميداليات والمجوهرات والنياشين. وعكست مرآة الفترينة قاعة المعرض. واكتشف خلفه، بجوار المدخل طفلة صغيرة عرفها على الفور.. فاليري.. حفيدة برناردان. وإذا كانت الطفلة قد داخلها الخوف من ريشار ديمون فإنها لم تشعر بأي خوف من ليونس كتارا، لأن هذا الأخير يمت إلى عالمها ولأنه كان خجولا مثلها، ولعله بحاجة إليها لأنه خيل لها أنه تائه قليلا في هذا المعرض الكبير. وتول رأوول في بطء وقال: فاليري.

واتخذ صوته أشد اللهجات إقناعا، وجاءت إليه باسطة يدها.

صباح الخير يا فاليري.. أترين؟ .. إنني أتفرج في نفس الوقت. ليست لدي كراسة جميلة مثلك، ولكنني أسجل أشياء في رأسي. هل لك أن تريني إياها؟

كانت تحمل تحت ذراعها الأيسر كراسة من مائة صفحة، زرقاء، وقد كتبت على غلافها اسمها بعناية كبيرة «فاليري فوتيريل». وكانت تضم مواضيع إنشاء ومسائل حساب وملخصات.

أراهن أنك تلميذة مجتهدة.

أجابت الطفلة في سذاجة: نعم.

وإنك تذاكرين دروسك جيدا .. وإن لك ذاكرة قوية.

أوه، نعم.

لنتحقق من ذلك إذن.. انظري حولك . هل انتقل شيء من مكانه؟

ركزت الطفلة، وبدأ عليها الجد والاهتمام فجأة في إرادتها لكي تعطي لهذا السيد الظريف انطباعا حسنا عنها. وأجابت:

كلا، كل شيء كما هو.

هل يأتي جدك إلى هذه القاعة كثيرا؟

نعم.

وهل يقترب من الفترينات.. واللوحات.

نعم .. فهو الذي يعنى بها وينظفها.

ثم؟ .. ماذا يفعل غير ذلك؟

ترددت لحظة وقد احمر لونها وخافتت من صوتها وهي تقول:

إنه يمشي فوق السطح في بعض الأحيان.

إيه يمشي فوق السطح ... هل أنت واثقة؟

نعم .. وهو يمشي على أربع.

ونظرت إلى رأوول خفية وهي تخشى أن تكون قد كشفت عن شيء يمكن أن يعطيه فكرة سيئة عن جدها، ولكنها لم تلبث أن ابتسمت عندما رأت أن السيد قابل اعترافها هذا باهتمام كبير.

ومتى يمشي فوق السطح؟

في الليل. صحوت مرة ورأيته، وقد ساءه ذلك وأوشك أن يضربني.

فاليري ...

كان الصوت صوت لوسيل، ووقفت الطفلة على الفور بعتبة المعرض.

آه . أأنت هنا يا فاليري. ألا يمكنك أن تردي على عندما أناديك. معذرة يا مسيو كتارا. إنها فضولية كالقطة. إنني أبحث عنها لكي أجبرها على العمل قليلا.

وكانت قد اقتربت وأردفت تقول في صوت خافت:

جدها هو الذي يهتم بها عادة. ولكن يجب أن أحل محله طبعا.

وضع أمين المكتبة المزعوم يده على رأس فاليري وقال: وهل أنت راضية عنها؟.

نعم .. إنها طفلة رزينة جدا.

فلنمنحها اليوم عطلة إذا سمحت.

وربت على خد الطفلة وقال: إمضي والعبي يا فاليري، ولندع الأعمال الجادة إلى الغد.

شكرا يا سيدي.

وانطلقت وهي تعدو.

وقال رأوول وهو يستعيد صوت ريشار ديمون: لعلك تتساءلين لماذا؟. ذلك لأنني بحاجة إلى أن أوحي بالثقة لهذه الطفلة، فهي تعرف أشياء.

أية أشياء.

لا أدري. ولكنني سأسألها شيئا فشيئا. لا تنسى أنها كانت تتبع جدها في كل مكان وأنها كانت تسمعه يتكلم.. هل يحزنها غيابه؟

لا أظن، فهي طفلة كتومة جدا، وقد رباها برناردان في خشونة. وقد قلنا لها إنه سافر لقضاء عمل، ولعمرى سرها ذلك. قال ديمون: هل تريدين أن تريني البستان؟ إن لدينا الوقت. ويجب أن يبقى خادمك، ذلك الغر الساذج الذي أقبل من باريس والذي يطوفون به أرجاء البيت.

ومشى خلف لوسيل بخطوتين في احترام واستحياء وهو محنى الظهر قليلا، وفي وضع ذليل حقا، وطاف بالدور الأرضي للقصر ومر أمام المطبخ حيث تعمل أبولين وخرج إلى البستان، وعرف وهو في طريقه الباب الصغير الذي خرج منه البارون وشركاؤه في الليلة التي اختطفوا فيها برناردان. وإذ أصبح بعيدا عن المقيمين بالقصر اعتدل في

وقفته وسار بجوار لوسيل، وقال:

لهذه النزهة غرض آخر، فهناك ما يحملني على الظن بأنكم جميعا مراقبون. لا تسأليني من.. فما زال الوقت مبكرا لكي أرد عليك .. ولهذا يجب أن أعرف عن ظهر قلب طبوغرافية القصر والبستان وكل ما يحيط بهما، لأنني واثق أن المعركة الحاسمة ستدور هنا. كلا. لا تخافي. لن يقع لك شيء. اسمعي، هذا باب آخر ... فأين يؤدي؟

لا يؤدي إلى أي مكان إنما هناك درب من الناحية الأخرى يتصل بالحقول. كان هذا الباب فيما سبق يؤدي إلى مقبرة صغيرة ملحقة بالقصر، وبعد الثورة أصبحت هذه المقبرة عامة، وهدموا جدرانها، وقد ضمت الآن إلى مقبرة يونرفيل.

فتح رأوول الباب، وما كاد يفعل حتى رأى شبحا يختفي في زاوية الجدارن ولكنه لبث جامدا لا يتحرك حتى لا يخيف لوسيل، ولم تكن قد لحظت شيئا: جميع آل يونرفيل في هذه المقبرة .. هل تريد أن تلقى نظرة؟ .. إن المدخل قريب من هنا.

واجتازا الدرب وانعطفا إلى اليسار فإذا بهما في الطريق القادم من البلدة والمؤدي إلى الباب العمومي للمقبرة. وكان رأوول يردد البصر حوله لعل الرجل لا يزال يحوم في المكان. وهو بكل تأكيد أحد خدم البارون. ومشت لوسيل في ممر طول تحفه الأشجار ثم انعطفت إلى

طريق ثانوي أفضى بها إلى صف من القبور القديمة. وكان رأوول يفحص الأنحاء في حذر كبير. وكان الصمت المطبق يثقل على الصخور والصلبان وباقات الزهور الذابلة. وقرأ وهو شارد الذهن تقريبا الكلمات المحفورة فوق الشاهد الرخامي.

هكتور يونرفيل

1772م – 1851م

كان كريما نحو الفقراء

صلوا من أجله

هكتور يونرفيل، صاحب القصة الذي تحدث الأستاذ فرينيزو عنه.. وعاد الحديث إلى ذهن رأوول .. فرار لويس فيليب وعودته إلى يونرفيل. ورأى فجأة، على مقربة من القبر شاهدا آخر أكثر تواضعا وعليه الكلمات التالية:

إيفاريست فوتيريل1901–1816م

ماذا؟ فوتيريل؟ لقب أهل فاليري؟ إيفاريست فوتيريل، الخادم الوفي المخلص الذي تكلم عنه موثق العقود... إذن فإن فاليري هي الوريثة المباشرة لوكيل الكونت يونرفيل الشاب.. إيفاريست الذي رافق الملك إلى تروفيل.. وإذن.. فإن الشيخ برناردان ...

وأمسك رأوول بذراع لوسيل وسألها قائلا: قولي لي .. برناردان؟..

أيمت بصلة القربى لإيفاريست فوتيريل؟

ــ إنه ابنه.

ومن جديد، أحس رأوول بذلك الانبهار الذي ومض في ذهنه في المعرض. ومرة أخرى خبا الوميض واكتنفه الظلام .. طبعا .. كانت العلاقة واضحة بين السر الغامض وبين فوتيريل ... ولكن ما هو هذا السر؟

وأردفت لوسيل تقول: لقد عاش برناردان في القصر طوال حياته. لعب فيه وهو طفل، تماما كما تفعل فاليري الآن، وإنني لاتساءل إذا لم يكن هو صاحب القصر الحقيقي. لقد اختفى آل يونرفيل ولكن آل فوتيريل ما زالوا باقين.

قال رأوول في حدة: كرري.. أعيدي هذا القول.

نظرت لوسيل إليه مشدوهة وقالت: ولكن هذا صحيح. لقد مات آل يونرفيل، ولكن آل فوتيريل يتعاقبون، أبا عن جد وابنا عن أب.

تمتم رأوول: آه .. هو ذلك .. هو ذلك حقا.

وفجأة، وبذهنه المتوقد العجيب الذي يجعله يثب إلى النتائج المنطقية دون أن يتوقف في المراحل المتوسطة عرف أن فاليري تتعرض للخطر بدورها هي الأخرى وأن الأشقياء الذين لم يكن هناك شك في أنهم لم ينالوا بغيتهم من الرجل العجوز لا يسعهم الآن إلا أن يحاولوا اختطاف فاليري .. وتذكر الشبح الذي سارع بالهرب عند زاوية

الجدار وتمتم يقول: كلا .. لن أغفر لنفسي أبدا.

سألته لوسيل وقد ارتبكت إزاء القلق الذي رأته على وجه زميلها: ما الخبر؟

ولكن رأوول أمسكها من يدها وجرها نحو الباب. وفتشت عيناه الممرات وحواسه كلها متوقدة تسجل أقل صوت.. طبعا .. إذا كانوا قد راقبوا القصر فذلك لأنهم أرادوا التأكد من خلو الطريق. كان البارون موجودا، ولعله كان قريبا جدا. لم يخمن طبعا من الذي يختفي تحت مظهر هذا الموظف الجديد الذي تدل هيئته على أنه غير خطر، ولن يحاول أحد الاعتداء على ليونس كتارا. ولكن لا ريب أن رجاله قد أخبروه بلا ريب أن لوسيل التي لا تخرج إلا فيما ندر. كانت في هذه اللحظة بعيدة عن البستان.

وراح رأوول يجري تقريبا. وكانت الفتاة تجد صعوبة كبيرة في اتباعه، وكان الباب الصغير لا يزال مفتوحا، وسألها رأوول:

هل يقيم برناردان في القصر؟

كلا. إنه يسكن الكوخ الصغير الذي تراه هناك، على اليسار ... ولكن دعني، فإنني أظن أنني سأقع.

أطلقها رأوول وراح يجري. واجتاز فناء الشرف وهو في عجلة من أمره، والتقى بأبولين: هل رأيت فاليري؟

كانت هنا منذ خمس دقائق. كانت تلعب أمام الباب، ولا ريب إنها عادت إلى الداخل.

ولكنه لم يكن مصغيا إليها، فقد أسرع إلى الكوخ في خطوات سريعة وهو يصيح: فاليري .. ردى على .. فاليري.

وفتح الباب وتوقف ريثما يسترد أنفاسه، ولكنه كان قد عرف.

ــ فاليري.

ودخل. وفتش المطبخ وغرفة الطعام والغرفتين الأخريين على عجل ... اختفت فاليري. لم يكن بالكوخ أي مكان يمكن أن تختبئ فيه. لقد اختطفت تحت أنفه وبصره وبعزم وسرعة يدلان على جرأة غريمه ووقاحته. وفكر رأوول: ومع ذلك فقد داخلني الشك، ولكن الشك لم يكن كافيا. آه. يا للوغد! إنه جدير بأن يعذبها هي الأخرى... وانغرزت أظافره في راحتيه. ودار حول نفسه حائرا محاولا تجنب الخطر، وقد أحس بالذلة لأنه أخذ على غرة. وتملكه الحزن بحيث تشنج حلقه.. هذه الصغيرة فاليري.. الآمنة والجذابة بضفيرتيها الجميلتين وكراستها التي تمسكها بكل تلك الرقة، ومسألة الحساب. قطاران. وزمجر يقول: آه، لسوف أقتله.

وجاءت لوسيل وهي تلهث وقالت: حسنا. عم تبحث؟

تمالك رأوول نفسه على الفور وقال: فاليري اختفت.

شحب وجه لوسيل بشدة، وأسرع رأوول يساندها قائلا: لوسيل، في مقدورك أن تساعديني. لم يفت الأوان بعد. إنها لم تذهب بعيدا بالتأكيد. فلنبحث. لا ريب هناك دليلا ما. فلنفتش بهدوء ورقة. ولنبدأ بالمطبخ.

أطاعته لوسيل ورافقته إلى المطبخ، وبدأت ترفع المقاعد، ولكنه أسرع يقول: كلا. ليس هكذا ... البحث معناه النظر لكي نرى إن لم يكن قد نقل شيء من مكانه .. إن الأشياء تتكلم.

وراح يتقدم ويتراجع كما يفعل الرسام أمام اللوحة. كان يحس بكل صغيرة، ولم تجرؤ لوسيل على أن تتحرك. وهتف فجأة:

آه ... ما هذا؟

وانحنى والتقط قصاصة من الورق من جانب الساعة الكبيرة، وبسطها وصقلها بيده. واقتربت لوسيل وقرأت معه:

«هاتي معك بالخطاب المخبوء خلف غلاف التوراة. أنا في انتظارك أمام الكنيسة بالغابة. جدك».

أدرك رأوول أنهم أرادوا ألا يستخدموا القوة مع الطفلة، فقد خافوا أن تصرخ وتستنجد ولهذا أعطوها هذه الورقة واستمالوها إلى الفخ. وهذا أفضل وأسلم. التوراة .. لا ريب أنها في غرفة برناردان.

وعبر غرفة الطعام. كانت التوراة فوق الطاولة بجوار الفراش، وكانت عبارة عن كتاب ضخم مجلد بالجلد، وفي الغلاف من الداخل،

تجويف رقيق كان من السهل إخفاء ورقة فيه. ولكن المخبأ كان فارغا.

وهكذا سجل البارون انتصارا حاسما بعودته إلى الهجوم، فقد اضطر الشيخ برناردان، في المحجر، تحت لسعة النيران إلى أن يكشف لجلاديه وجود التوراة والسر الذي تضمه. كان هذا السر لا يزال موجودا قبل ذلك بخمس دقائق. لم يكتشفه أحد، وقد قالت أبولين: كانت هنا منذ خمس دقائق. ونظر رأوول إلى ساعته ... خمس دقائق. وما هي الدقائق الخمس؟ إنه يستطيع أن يلحق بهم بالسيارة بكل سهولة. آه .. لماذا دفعه الحرص إلى أن يحمل ليونس كتارا على القدم بالقطار؟

حاول أن يتظاهر بأنه واثق من نفسه وبأنه سيد الموقف ولكنه كان يسمع في داخله نبضات التوتر التي تدق دون رحمة أو هوادة.

لوسيل .. ماذا يوجد هنا من وسائل المواصلات؟

سيارة عمى .. ولكنه انطلق بها.

وغيرها؟ .. ألا يوجد شيء آخر؟

بلى .. دراجتي .. وموتوسيكل أو بالأحرى سيدكار، كان أبى يستخدمه في تنقلاته للرسم.

وأين هو؟

في الجراج. ولكننا لم نستخدمه منذ وقت طويل.

سوف أستخدمه أنا. أصغى إلى جيدا يا لوسيل .. أثناء غيابي .. أوه،

لن يكون ذلك طويلا .. سوف تنسين كل ما حدث، وسوف تخرجين وتقرئين وتقطفين الزهور، ولكن عليك ألا تفكري في أي شيء.. هل تسمعين؟ .. ومن ناحيتي أنا، سوف أعيد إليك الصغيرة. اتفقنا؟

كانت تنبعث من هذا الرجل قوة وسكينة بحيث إن الفتاة ابتسمت وقد شعرت بالاطمئنان.

وأمسكها رأوول من كتفيها ونظر إليها مليا ثم قال: سوف تكون هنا الليلة.

ثم أسرع إلى الجراج، وهناك بارك أشيل لأنه كخادم أمين اعتنى كل العناية بالسيدكار بحيث وجده رأوول في حالة صالحة، ولكن المخزن كان فارغا، ولحسن الحظ كانت بالجراج بضع صفائح من البنزين، فملأ الخزان بكل دقة رغم الدقائق التي تمر ثم دفع السيدكار إلى الخارج وأدار المحرك وجلس أمام عجلة القيادة. وضغط على الفرامل عندما بلغ المكان الذي تقف به لوسيل، وكانت تنظر إلى كل ما يفعل في شيء من الذعر.

تلك الكنيسة التي في الغابة .. هل هي بعيدة؟

كلا. بعد أربعمائة متر. انطلق إلى اليمين، بعد البستان.

وانطلق منتزعاً بعض الحصى. ورغم خطورة الموقف استمتع بالسرعة في عشقه للميكانيكا. ورأى جدران الكنيسة التي يكسوها

اللبلاب ووضع قدما على الأرض وتقدم محاذيا حافة الطريق وهو يفحص الغبار الكثيف في هذا الفصل من السنة، ولم يستغرق فحصه أكثر من بضع لحظات لأنه لم يلبث أن رأى الآثار، وعرفها دون مشقة.. عجلات سيارة من طراز دنلوب. وقد عرفها بسهولة بسبب أضلاعها المميزة. وكانت هناك بركة صغيرة من الزيت في المكان الذي توقفت فيه سيارة المختطفين ورأى رأوول ما حدث في وضوح كما لو كان يرى فيلما سينمائيا. الطفلة الصغيرة تجرى وهي بالغة الانفعال «أين جدي» إنه هنا، وهو في انتظارك. وتتقدم في غير حذر ولكن يدا تكمم فمها وذراعا تحملها وتنطلق العربية.

وتمتم يقول: يا للأوغاد!

وألقى نظرة إلى ساعته. كان التأخير الآن قد بلغ ربع ساعة. وعاد للانطلاق وهو يفحص الأرض من وقت لآخر متابعا آثار الدنوب بين غيرها من الآثار. ولحسن الحظ كانت السيارات قليلة في هذه الناحية النائية من نورماندیا. وعندما بلغ بون أوديمار أبلغ فلاح أن سيارة سوداء مرت قبل ذلك بقليل وانعطفت إلى طريق روجمونتييه.

هل كانت مسرعة؟

ليس كثيرا .. لا ريب إن ركابها باريسيون لأنه كان واضحا أنهم لا يعرفون الطريق جيدا.

قال رأوول محدثا نفسه: آه. إنهم لا يريدون لفت الأنظار إليهم.

وضاعف من سرعته. وزمجر المحرك كأنه يشكو من الإعياء. وانعطف في طريق روجمونتييه، ولم يلبث أن رأى الآثار في أحد المنعطفات، فقد حادت السيارة عن الطريق ووطأت الأعشاب. وراح رأوول يسابق الريح وقد تشعث شعره واحمرت عيناه من الغبار وأخذ يتطلع إلى الطريق الذي أمامه محاولا أن يتحاشى الحفر والأخاديد، ضاغطا بركبتيه على مخزن الوقود تجنبا للوقوع. ورأى عن بعد جرس كنيسة لابوي.

يا للعنة! .. كان هناك حشد متجمهر من الناس في وسط الطريق، حول عربة نقل سقط جوادها بين العريش. وأبطأ في سيره ودار بالحشد ورأى وهو يدور عيني الجواد البيضاوين ووجه صاحب العربة الشاحب. وصعد فوق الطوار وتوقف بجوار غلام سأله قائلا:

هل رأيت سيارة تمر من هنا منذ ربع ساعة؟

سوداء؟

نعم.

والستائر مسدلة؟

نعم.

ليس من ربع ساعة يا سيدي. بل لا أكثر من أربع خمس دقائق.. لأنها اضطرت ان تتوقف.

دهش الغلام حين أعطاه رأوول قطعة نقدية من ذات الخمسة فرنكات، وراح يتابع بعينيه ذلك الرجل النصف مجنون والذي تدمع عيناه وينطلق بالموتوسيكل بهذه السرعة المذهلة. وكان رأوول قد انعطف إلى الطريق المؤدي إلى نهر السين. وفجأة رأى السيارة وهي تتقدم في حذر بسبب المنعطفات الكثيرة.

آه .. إنها لي الآن.

واندفع نحوها كما يندفع الصقر نحو فريسته. وكانت نيته أن يسبقها ولو اقتضى ذلك منه القيام ببضع حركات بهلوانية وأن يقف في عرض الطريق، ولكن لا ريب أن ركابها فطنوا إليه لأن السيارة أسرعت، وظهر ذراع من النافذة وقذيفة صغيرة من الدخان. ولم يسمع رأوول الطلقة ولكنه خمن صفيرها وانحنى فوق عجلة القيادة وأبطأ وراح يمشي في خط متعرج.

وأفرغ الرجل مسدسه كيفما اتفق تقريبا، ثم اختفى الذراع، وانطلقت السيارة وقد ضاعفت من سرعتها. واستشعر رأوول فجأة ما سوف يقع فضغط على الفرامل في قوة وانطلق بانحراف جانبي الطريق في حين صعدت السيارة الثقيلة ممرا جانبيا واصطدمت بشجرة وفقدت توازنها تماما وهوت في النهر، على حافة الساحل.

وتناثر الماء وتطايرت رشاشات منه على وجه رأوول الذي كان قد انحنى فوق الشاطئ وبدا يخلع سترته. وامتدت في وسط النهر دوامة

كبيرة بيضاء في نفس الوقت الذي طفت فيه على سطح الماء رأس ثم أخرى. وألقى رأوول بنفسه في الماء وراح يسبح في قوة نحو فاليري، وكانت توشك أن تغرق، وأمسكها في اللحظة التي همت فيها بأن تختفي. أما الغريق الآخر فقد أسرع نحو الشاطئ دون أن يهتم بفريسته. وصاح به رأوول: سوف نلتقي.

وشرب جرعة كبيرة من الماء وعطس. وحمله التيار إلى شاطئ صغير، وانصاع له وهو يحمل فاليري، ولم تكن قد فقدت الرشد. ولحسن الحظ كان الطقس حارا في ذلك الوقت من شهر يونية، مما جعل هذا الحمام الاضطراري أقل خطرا، ووضع قدميه على الشاطئ دون صعوبة، ورأى منحدرا أفضى به إلى طريق غير بعيد عن الموتوسيكل. وكانت فاليري قد أحاطت بذراعيها الرقيقتين عنق ذلك الرجل الغريب الذي رأته موظفا خجولا متواضعا والذي يضعها الآن في رفق أبوى في السيدكار الذي طالما تحدث عنه أشيل بكل سخرية.

سوف أجففك يا صغيرتي ثم أعيدك إلى البيت.

ولم تعرف الصوت هو الآخر ولكنها أحست بالاطمئنان وتكومت في مكانها وقد غلبها النعاس رغم البرد. لعل الأب نويل، عندما كان شابا كان يشبه هذا الرجل الغريب الأطوار الذي يدير محرك السيدكار الآن، وكانت غارقة في النوم عندما توقف رأوول في فناء إحدى المزارع،

وقال إنه تعرض لحادث غير خطير، ولم تسمع الطفلة المزارعة وهي تترفق بها وتلفها في غطاء دافئ وتشعل النار. وشربت قليلا من اللبن الساخن دون أن تفتح عينيها. لم يكن يشغلها غير فكرة واحدة كشعلة صغيرة من الفرح: أنا الآن آمنة. إنني الآن في أمان.

ولم تستيقظ تماما إلا في طريق العودة. وكان زميلها منطلقا بسرعة عادية. وأحست بالراحة والهدوء بعد القلق الذي سيطر عليها أثناء سباق السيارة الرهيب.

وسألها رأوول: هل أنت على ما يرام يا صغيرتي؟

ابتسمت من غير أن ترد، ولكنها مدت يدها إليه فضمها في حنو كبير وهو يقول: هل قطعوا لسانك؟

أوه، كل يا سيدي.

كم رجلا كان معك.

ثلاثة.

يا للشيطان! سوف تخرج جماعة البارون من المغامرة حتما.

ماذا قالوا لك؟

إنهم سيمضون بي إلى جدي.

والخطاب الذي أخذته من التوراة.

أخذوه مني.

هل قرأته؟

كلا. ولكن جدي كان يقرأه من وقت لآخر أثناء الليل ويبكي.

وما شكله؟

ترددت الطفلة، فإنه يسألها الآن شيئا صعبا جدا. وعاد رأوول يسأل: هل كان قديما؟

نعم. كان هذا يبدو من ثنياته. وكذلك المظروف ... كان مصفرا.

آه. كان هناك مظروف إذن؟ .. وهل كان يحمل عنوانا؟

نعم... حضرة الكونت يونرفيل.

حضرة الكونت...

أبطأ رأوول مرة أخرى، فهو يقترب الآن من النهاية:

ومن أين أتى؟ .. حاولى أن تتذكري.. كيف كان الطابع.

أوه، كان طابعا قديما.. وعليه رأس سيدة.. كان جدي يقول إنها الملكة فيكتوريا.

هكذا.. الملكة فيكتوريا.. خطاب مرسل من إنجلترا للكونت يونرفيل!.. في أعماق الظلام الذي يتخبط فيه رأوول، ومضت نقطة مضيئة تشير إلى المنفذ البعيد للنفق.

واستطردت فاليري تقول: كان جدي يقول لي إنه سيعطيني أياه عندما أكبر، وأنه لا يجب أن أتخلى عنه أبدا.

زمجر رأوول .. «سوف نسترده، وسأعيد إليك جدك أيضا».

قالت فاليري: ربما ينهروننني في القصر لأنه ليس لي الحق في الخروج من غير إذن.

كلا. سوف أهتم بذلك.

وألقت نظرة إلى ساعته وأردف: ثم إننا سنبلغ القصر قبل عودة السيد

فيـ

ة وقد شعرت بالاطمئنان. وراح رأوول يفكر. هذه المـ يدة التي أقدم عليها البارون تدل على أنه لا يملك كل الأوراق، ولا ريب أن مذكرات الكونت يونرفيل لم تفده بشيء. وما دام هناك سر فلابد من الاعتراف بأن هناك شفرة تحميه .. شفرة لم يستطع البارون حل رموزها، كما لم يستطع حل رموز الكلمات: يعقوب .. القديس جان .. دارتنيان .. يبقى خطاب انجلترا.

وقال رأوول: نحن متعادلان. إن معه الخطاب ومعي الجد، وهذا الأخير يعرف مضمون الخطاب عن ظهر قلب وسوف يذكره لي، وإلا فلن يبق أمامي إلا أن أعمل غفيرا ... هيا يا صاحبي، إن الحياة جميلة!

كرمة القديس جان

استعاد رأوول دون أي جهد شخصية أمين المكتبة، وبدا عمله مثيرا ارتياح سيد القصر، فما أن يغادر هوبير فيرانج البيت ويمضي إلى المصنع حتى تأتي لوسيل وتنضم إلى ذلك الذي ما زالت تعتبره صحفيا.

وكانت تساعده بقدر استطاعتها. وكان يطوف بالجزء العلوي من المكتبة وينطق بعناوين الكتب وأسماء المؤلفين فتدونها في سجل بعناية كبيرة. وكان ينحني أحيانا فوق الدرابزون ويتأمل الفتاة وقد انحنت في رقة فوق السجل، ثم يتملكه الارتباك ويعاود عمله. ولكنه رغم ذلك لم ينس مهمته لأنه كان يحس أن العدو يحول حول يونرفيل. غير أنه منح نفسه مهلة بجوار الفتاة الفاتنة، ومن ناحيتها هي، لم تعد تستطيع الاستغناء عنه.

وكان قد مضى يومان على اختطاف فاليري لم يقع فيهما أي

حادث مؤسف. وكان رأوول يصطحب البولدوج، وكان قد تصادق معه، ويقوم بالتفتيش سرا، بعد أن ينام الجميع، ويتحقق من الأقفال والأبواب والنوافذ. وكان يقوم أحيانا أثناء الليل ويتجول في الممرات الكبيرة الواسعة أو يمضي ويتأمل لوحات المعرض، ويفحص الجدران بسبابته وهو لا يدري عم يبحث. ربما عن ممر سري وربما عن مخبأ. وكان يعلم أنه يجب أن يعود إلى برونو وأن يتعجل الشيخ برناردان، ولكنه كان يقول لنفسه إن من الحكمة أن يترك الشيخ العجوز حتى يطمئن ويأنس إليه ويفهم أن من مصلحته أن يتكلم. ثم إنه كان يهبط إلى قرارة نفسه وينظر في شيء من الانقباض إلى الحقيقة دون موارية ويقول: أنت تحبها. كن صريحا. إنها تحرك مشاعرك بشبابها. وأنت؟.. أنت تثير خجلي. ولكن افتح عينيك. أنت أول رجل تلتقي به، ثم إنك غامض وتثير إعجابها في نفس الوقت، فلا عجب إذا خفق قلبها أمامك. ولكن حذار أن تلمسها يا لوبين.. عليك أن تنصرف على أطراف قدميك بمجرد أن تفرغ من هذه القضية. لن تكون بالنسبة لك أكثر من ذكرى.

ثم وقع حادث أثار اضطراب رأوول وقلقه، فبينما كان يفحص الكتب والأضابير الموجودة في آخر المكتبة اكتشف مظروفا كبيرا أصفر، وهم بأن يفتحه حين أسرعت إليه لوسيل وهي مضطربة الوجه وهتفت تقول: كلا، أرجوك. لا تنظر إلى ما بداخل الظرف.

قال في شيء من الاستياء: آه، حسنا. ليس من عادتي الفضول. أتسخر مني؟

لوسيل .. وهل أستطيع أن أسخر منك حقا؟

إنك تخمن كل شيء، فقل لي ماذا يوجد في هذا المظروف.

لا أدري .. يبدو لي أنها قصاصات جرائد.

هو ذلك. إنني أقتطفها من بعض الصحف القديمة .. ثم .. ولكن لا أهمية لهذا... لا أريد أن أخفي عنك شيئا.. هيا .. يمكنك أن تفضه.

اطاعها رأوول وأجفل على الفور، فقد عرف هذه القصاصات. كانت تضم كل المقالات التي سبق أن أرسلها إلى جريدة «ايكو دي فرانس والفيجارو والجولوا» يتهكم فيها من ضحاياه، ويعلن عن نواياه أو يدافع عن سمعته. وتملكه انفعال شديد وأغمض عينيه وراح يستظهر إحدى هذه المقالات. وشاركته لوسيل لعبته وأغمضت عينيها هي الأخرى واستظهرت مقالة ثانية. وراح كل منهما يتحدى الآخر ويستظهر التواريخ.. سنة 1911م .. كلا، بل سنة 1912م ... سبتمبر سنة 1912م. وكانت لوسيل هي الرابحة، وأوشك أن يقولك إنني نسيت، فقد وقعت أحداث كثيرة منذ ذلك التاريخ، وانفجرا ضاحكين كما لو كانا طفلين.

وسألته لوسيل: إذن فأنت شديد الإعجاب به أنت أيضا؟

الحق أنني...

وعادت تقول في ارتباك ظريف: أما أنا فإنني أكن له .. أكن له ...

همس رأوول وقد شحب وجهه: تكلمي.

إنه جذاب جدا ... وغريب الأطوار حقا ... وعمى تأتيه كل صحف باريس. تماما كما كانت تأتي لأبي، وهكذا استطعت .. ليس ممنوعا أن يحلم المرء.. أليس كذلك؟

يقينا لا.

كنت أتصور أنه. أوه.. هذا أمر مضحك.. كنت أتصور أنه قد يأتي ذات يوم، فالقصر مشحون بأشياء تستحق السرقة. ولكنه لم يأت أبدا.

صاح: ولكن.. إن أرسين لوبين ليس كما تتصورين... إنني على يقين من ذلك لأنني التقيت به.

التقيت به؟

ولمعت عيناها فضولا وانفعالا. واضطر رأوول أن يبذل جهدا كبيرا لكي لا يضمها بين ذراعيه، وابتعد عنها قليلا.

نعم. التقيت به كثيرا، فمهنتي تقتضي أن ألتقي بجميع الناس تقريبا.

وكيف هو؟

أوه. إنه رجل عادي كغيره من الرجال.

قالت لوسيل وهي تضم يديها: بل هو رجل عجيب، فبالنسبة لي أنا

التي أعيش هنا سجينة القصر، يبدو لي ذلك الرجل الذي عاش كل هذه المغامرات إنه .. إنه .. لا أستطيع أن أفسر لك. لو أنه ظهر أمامي فجأة فأظن أنه سيغمى على أو أنني سأقدم على شيء غير لائق.

وعاد سيد القصر فوضع فجأة نهاية لهذا الحديث. ومضى إلى المائدة. ولكن رأوول كان شارد الذهن وراح ينظر إلى لوسيل خلسة، وكانت لا تزال بادية الانفعال، وكان فيرانج يتكلم ويتكلم .. ولكن عم كان يتكلم في الواقع؟ .. عن الصيد.

كان يقول: في الماضي كان البستان أكبر من ذلك بكثير. كان عبارة عن غابة تمتد بعيدا حتى جسر أوديمار، وكان أشراف يونرفيل يملكون سربا من كلاب الصيد، وما زالت هناك حتى اليوم شرفة كبيرة في جناح لويس الثالث عشر كانت سيدات القصر يشهدن منها هجوم الكلاب على الفريسة، تماما كما يحدث في مدينة شامبور.

قال رأوول في لهجة مهذبة، وكان ذهنه في أماكن أخرى، هذا غريب جدا.

أليس كذلك؟ سوف نمضي إليها بعد أن نفرغ من الطعام ما دامت تهمك هكذا.

كما تشاء.

وهكذا، وبعد أن فرغا من تناول القهوة تأبط فيرانج ذراع كتارا في غير

تكليف وقال: آه. اعلم أن الدرج الذي يؤدي إلى الشرفة قد نخره السوس بحيث انتهى به الأمر إلى أن انهار. ونحن نستخدم سلما خشبيا مؤقتا. ولكن لا تخش شيئا.. إنه سلم متين، وأنا وزني أكثر منك بكثير وأصعد بسهولة، وأمضي من وقت لآخر إلى تلك الشرفة لأستمتع بالمنظر الجميل الذي يطالعني من هناك. وسوف ترى بنفسك.

وبلغا آخر الممر الطويل الذي يؤدي إلى غرف الطابق الثاني غير المسكونة، وفتح فيرانج بابا أفضى بهما إلى مخزن دائري.

وقال هوبير ليرانج: البرج الغربي .. وهذا هو السلم.

قال كتارا مذعورا: يا إلهي ... إنه عال جدا.

سأتقدمك وأريك الطريق.

وإذ قال سيد القصر ذلك أمسك بقائمتي السلم وبدأ يصعد.

وقام أمين المكتبة الشاب بدوره بأعجوبة وأبدى فزعا طرب له فيرانج كثيرا وقال:

إن السلم ينثني قليلا بالطبع، ولكنني أوكد لك ... وكان قد بلغ قمة السلم. ودوت طقطقة، ولم يجد رأوول إلا الوقت المناسب لكي يثب بعيدا، ووقع فيرانج عند قدميه مثيرا سحابة من الغبار. وانحنى رأوول فوقه. كان الرجل قد فقد الرشد وانساب خيط رفيع من الدم عند أذنه، وانحنت ساقه اليسرى بصورة غريبة. وصعد رأوول السلم في خفة. كانت

العارضتان العلويتان قد انكسرتا. وأثبت له فحص سريع أنهما نشرتا عند مستوى القائمتين، وكانت أسنان المنشار واضحة جدا. وهبط رأوول وهو مشغول البال. لم يكن حادثا عرضيا وإنما كان تخريبا متعمدا تم بحذق ودهاء. مرة أخرى سبقه العدو وعمل في الخفاء. ومرة أخرى كان في مكيدته الضارية شيء أشبه بطريقة البارون. مكيدة حاذقة ولكنها شديدة القسوة . ولكن من هو؟ من هذا المخلوق الخفي الذي لا يرحم، وأية معاهدة بشعة عقدها مع جالسيران؟

تردد رأوول. هل ينبغي أن يترك سيد القصر المسكين لكي يسرع وينبه لوسيل بالخطر؟ ولكنه لم يلبث بعد شيء من التفكير أن أدرك أن الشرك قد أعد منذ وقت طويل، وأن الذي أعده شخص راح ينتظر في صبر في مكان آمن كما فعل مع جاك فيرانج وزوجته، وأن في مقدوره إذن أن يترك سيد القصر وحده بضع دقائق أخرى.

وتظاهر بالذعر وأسرع يبحث عن عون، وعاد بأسيل وأبولين. وبينما كان الخادمان يحملان سيدهما، وكان لا يزال مغمى عليه، إلى غرفته، أخطر لوسيل بما حدث وطمأنها في نفس الوقت بقدر استطاعته، ثم أرسل أشيل إلى البلدة لكي يأتي بطبيب. وكان الفضل له في عودة الهدوء والنظام في بضع دقائق. وفضوا عن فيرانج المسكين ثيابه في حرص شديد ومددوه في فراشه، وعاد إلى رشده في بطء، وجلست

لوسيل بجواره، وجفت أبولين دموعها في حين كان السكرتير العديم الشأن في كل مكان، يساعد الجميع ويتخذ أعجب الإجراءات مبرهنا للجميع خفية مقدرته وكفاءته بحيث إنه، بينما كان يعد جبيرتين، أمسكه سيد القصر بيده وقال: أشكرك .. أشكرك .. إنني أدين لك بالكثير، ولن أنسى جميلك هذا أبدا.

صه .. لا تتكلم ولا تنفعل.

لا أدرى كيف حدث هذا.

بأسهل ما يكون، فإن وزنك ثقيل فانكسرت عارضتان .. آه .. ها هو الطبيب.

وابتعد مع لوسيل، وانتظر نتيجة الكشف في الخارج. وسألته الفتاة: هل تظن أنه حادث وقع قضاء وقدرا؟

كلا للأسف .. فقد نشر بعضهم عارضتان بالسلم.

رحماك يا إلهي.. متى ينتهي هذا الكابوس.

قريبا، وأعدك بذلك.

ألا يجب أن نبلغ البوليس؟

أبدا. لا يجب هذا على وجه الخصوص، فنحن لا نملك أولا أدلة كافية ثم إننا أمام أعداء ماكرين لن تهمهم تحريات البوليس في شيء، كلا. إنما يجب أن نضاعف من احتياطاتنا. ومن ناحيتي، لن أبق مكتوف

اليدين كما تظنين.

وفتح الباب عندئذ واستدعاهما الطبيب، وكان صريحا لأنه قال:

إنني سأنقل مسيو فيرانج، فإن حالته تزعجني كثيرا. سوف أعالج ساقه بدون مشقة ولكن قلبه ليس سليما تماما، ولا ريب أن الصدمة كانت عنيفة جدا. ما كان يجب أن يقوم بأعمال الشباب وهو في هذه السن. سوف يساعدني أشيل وننقله إلى عيادة هونغلور ونضعه تحت الفحص بضعة أيام. وأرى أنه سوف يشفى سريعا، ولكن الحرص واجب.

دخل أمين المكتبة الغرفة وحيا مسيو فيرانج في رفق وتمنى له الشفاء العاجل ثم خرج كما تقضى المجاملات، ولكنه بدلا من المضى إلى غرفة المكتبة عاد إلى البرج الغربي. وما هي إلا لحظات حتى أسند السلم إلى الحائط بخفته ورشاقته المعهودتين.

لم يكذب سيد القصر، فقد كان المنظر من أجمل المناظر التي رآها في حياته. ولكن رأوول لم يكن في القصر للفرجة أو السياحة، فبعد أن ألقى نظرة سريعة على الريف الذي أضفى عليه الصيف لونا ذهبيا، وعلى المقبرة والبرج القديم المهدم الذي رأى منه قصر يونرفيل لأول مرة، وبعد أن ألقى نظرة يقظة إلى فناء الشرف حيث كان أشيل وأبولين ينقلان المصاب إلى السيارة ويدثرانه بالأغطية في عناية فائقة، نقل اهتمامه إلى الشرفة وعبارة فاليري الصغيرة ترن في أذنيه. «إنه يمشي على أربع فوق

السطوح». ولكن أي سطوح؟. على هذه الشرفة لم يكن هناك داع لأن يمشي المرء على أربع لأن في مقدوره السير على أتم راحته. ولكن كان من المستحيل الانتقال منها إلى مكان آخر لأن الألواح الحجرية كانت شديدة الانحدار .. فما معنى العبارة التي ذكرتها الصغيرة؟

اعتمد رأوول بذراعيه على الدرابزون الرفيع الذي يحيط بالشرفة، وتابع بعينين فاحصتين السيارة وهي تنطلق بالمصاب. كان من السهل طبعا وضع قائمة. جاك نيرانج وزوجته قتيلان. وهوبير فيرانج في المستشفى وفي خطر كبير، فقد يموت هو الآخر، ولوسيل التي نجت من حادث والتي لا زالت تتعرض لخطر فظيع. وإذن؟ يتبقى ثالث الأخوة فيرانج إذن. العم الذي تحدثت عنه عرضا والذي يؤول إليه قصر يونرفيل والممتلكات الملحقة به بعد موتهما. هذا غريب. لا أثر من هذه الناحية. ولكن مهما يكن من أمر فما هي العلاقة بين هذه المحاولات وبين الموت البشع لصاحبي القصر السابقين؟ وأية علاقة بينهما وبين يعقوب والقديس جان ودارتنيان. والدم؟. أهو دم كل هذه الضحايا؟

في تلك اللحظة، وكان رأوول يلقي نظرة أخيرة إلى السطح لكي يقنع نفسه بأن العصفور وحده يمكنه أن يمشي فوقها، رأى شيئا أثار كل اهتمامه، فإن إحدى الهوائيات العديدة التي ترتفع فوق الأسطح لم تكن تدور. وفي حين أنها كانت تشير كلها إلى الشمال الشرقي، وكانت الأسطح حافلة بكل

نوع منها، من أعلام مختلفة إلى حيوانات وسهام بسيطة معدنية، كانت هناك واحدة ظلت تشير إلى الجنوب في إصرار، وكانت تلك الهوائية تمثل في صورة فظة هيئة إنسانية... جندي شاهر سيفه.

وفجأة، فهم رأوول. كلا. لم يكن جنديا عاديا وإنما كان فارسا.. ولكن.. ولكن. أنت مخطئ يا لوبين، وإذا استمررت على هذا فسوف ترى فرسانا حتى في السحب التي تمر فوقك.. ومع ذلك، كان الصدأ يعلو الهوائية.. تآكلت بفعل الدخان وتقلبات الجو، ولابد أنها في مكانها هذا منذ أجيال طويلة. ولكن المعطف ذا الثنيات المتوترة التي تتعرض للرياح، كشراع سفينة والسيف المشهر نحو السماء والحذاء ..نعم، هذا فارس حقا.. واحتد رأوول غضبا لأن هذه الأدلة التي زرعها قدر ساخر تحت قدميه، كفتات الخبز لم تكن تؤدي إلى شيء... دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف. ها هو الآن أمام دارتنيان، ولكن إلام يشير بسيفه؟ .. إلى الريف أم إلى السماء؟ .. أم الفضاء ..ثم. هاك دارتنيان آخر في قاعة المعروضات ثم ... ولكن، لا داعي لأن يشغل ذهنه ويفرط في التفكير. سوف تأتي اللحظة التي تتلاءم فيها جميع قطع اللغز.. كانت قوة هذا الرجل الفذ في أنه لم يكن يكابر ويعاند نفسه.. كان يعرف خيرا من أي شخص آخر اللحظة التي يتيح فيها الاستنتاج والمنطق وحدهما أحداث ثغرة في جدار الظواهر المضادة. وإذا بدا له

الطريق مسدودا في أية لحظة فإنه يغير الاتجاه على الفور ويبحث عن منفذ في مكان آخر. وكان المنفذ في الوقت الحالي هو الفونس فيرانج.

هبط رأوول دون أية مشقة وطفق يبحث عن لوسيل، ووجدها في غرفة المكتبة، وما أن رأته حتى حاولت أن تخفف دموعها فقال:

ليس هذا بجميل ... اتنتهزين فرصة أو أوليك ظهري فتبكين .. كما لو أنني لا أستطيع الدفاع عنك.

تمتمت: ذلك إنني خائفة جدا. سيلحقون بك الأذى أنت أيضا.

أنت تعذبين نفسك من أجلي إذن يا عزيزتي لوسيل.. لو أطلعك على قصتي فسوف ترين أنني اجتزت أخطارا أخرى كثيرة بدون ألم..

كان شديد الانفعال. وفي رفق كبير أحاط كتفي الفتاة بذراعه وقال: لا تخشي شيئا يا لوسيل.. أنا كالمداخن والنار غذائي.

ابتسمت خلال دموعها وقالت: إنك تشبهه.

من هذا ؟

هو.

وأشارت إلى المظروف الذي يحتوي على قصاصات الجرائد، وقال رأوول مازحا: أوه. وددت ذلك، ولكنني دونه بكثير. ومع ذلك فإنني أعرف ما قد يفعل لو أنه هنا.

وماذا يفعل؟

سيلقي عليك أسئلة لا نهاية لها، وسيطلب منك أن تزوديه بكل ما تعرفين من عمك الفونس.

كانت لهجته مرحة فيها سخرية يشوبها شيء من الرقه.. كان يملك قدرة عجيبة لبث الهدوء في القلوب. ونسيت لوسيل قلقها وردت عليه في نفس اللهجة المرحة: كنت أقول له: سلني يا مسيو لوبين، فانني لن أستطيع أن أخفي عنك شيئا.

حسنا. فلنبدأ إذن. أريد أن أعرف قبل كل شيء آخر لماذا لا نرى هذا العم أبدا. كان يجبن طبعا، أن يشعر بشيء من القلق عليك وعلى أخيه، وأن يأتي لزيارتكما أو أن يدعوكما لزيارته.

إن عمي هوبير لا يحبه كثيرا. ويجب أن أعترف بأنه ليس ودودا مع أحد. ومهما يكن فهو يعيش في عزلة كالرجل المتوحش.

وتنهدت: ومع ذلك فإن والداي كانا متفاهمين جدا معه، وأبى على الخصوص.

-وأين يقيم؟

ليس بعيدا من هنا .. بعد كنيسة سانت إدريس. قد مررنا به في عودتنا من «الصخرة الكبيرة» ولا أذكر إذا كنت قد حدثتك عن ذلك، ولكن «الصخرة الكبيرة» كان جزءا من أرض اشتراها أبي قبل زواجه بكثير.. وفي أسفل الصخورن هناك البيت.. أعنى الكوخ الذي تعرفه.

وارتجفت فتمتم رأوول: نعم، نعم .. تكلمي فإنني أعرفه.

وهناك، بعده بقليل، فوق التل، البيت الذي كنا نعيش فيه .. في وسط مزرعة كان أبي قد اشتراها بثمن زهيد وأدخل عليها إصلاحات لكي تكون مقاما مريحا، ثم تنازل عنه لأخيه الفونس بعد أن اشترى يونرفيل، غير أنه احتفظ لنفسه بالصخرة الكبيرة.

لقد كان هذا كرما منه.

كان أبي كريما جدا في الواقع.

وماذا فعل هذا الأخ؟

لا شيء يذكر... فكر في أن يكتب.. وكان قد كتب في شبابه ديوانا من الشعر .. بضع قصائد على نمط هيريديا لأنه كان معجبا به جدا. ثم كتب بعض الروايات بعد ذلك ثم فترت همته شيئا فشيئا.

معنى هذا أنه رجل فاشل.. وفي أثناء ذلك كان يرى أخويه يزدهران.. وهذا البيت، هل يعرف باسم؟

نعم. كرمة القديس جان.

وكان رأوول قد ألقى هذا السؤال بطريقة آلية ما كاد يسمع الرد حتى أجفل.

كرمة القديس جان!

قالت لوسيل: نعم... وما الغرابة؟

لا شيء.. لا شيء بالطبع.

ولكن حاجته إلى العمل جعلت الدم يغلي في عروقه، فقال:

هل هو الذي أطلق على البيت هذا الاسم؟

كلا. كان البيت معروفا بهذا الاسم عندما اشتراه أبي.

خفض رأوول صوته وقال: أين كلبك؟

في غرفتي. نائم.

أريد أن تصطحبيه ابتداء من اليوم في كل مكان.

ووضع أصبعا على شفتيه، وفي ثلاث خطوات كان بجوار باب قاعة المعرض، ففتحه في عنف. ولكن لم يكن هناك أحد. وارتد صوته اصطفاق الباب مدة طويلة كرنين الجرس في قبة الكنيسة. وعاد على عقبيه وهو يحاول أن يتظاهر بالهدوء وعدم الاكتراث.

معذرة. خيل لي أنني سمعت.. هذا سخيف. إن أبولين لديها ما يشغلها طبعا غير استراق السمع.

أوه.. إنني أكفلها.. وأكفل زوجها أيضا.. إنهما شديدا الإخلاص لنا، ثم إن أشيل لم يعد بعد.

غير أن رأوول لم يكن يفكر لا في أشيل ولا في أبولين.. وإنما كان يفكر في «الآخر»... في ذلك الذي نشر العارضتين والذي خرب قبل ذلك مركبة الفتاة، وأعد فخ الباب القلاب.. أهو الذي كان يقف منذ

لحظات عند باب المعرض.. ذلك لأنه كان هناك شخص يقف بالبا بالتأكيد ... وكان رأوول واثقا من ذلك.. أيمكن أن يكون هو البارون.. ونظر إلى ساعته.

عودي الآن إلى غرفتك. وعندما تغادرينها بعد عودة أشيل اصطحبي بولوكس معك. هل تسمعين؟.. أما أنا فلدى عمل خاص أريد أن أتحقق منه، وسأبقى في الخارج وقتا طويلا، وأريد أن يكون ذهني مطمئنا. وبهذه المناسبة، قد احتاج إلى مفتاح، إذ ليس في نيتي أن أطرق الباب ربما في منتصف الليل.

هذا أمر ميسور. سأعطيك مفتاحي فإنني لا أستخدمه أبدا. تعالى. إنه في درج مكتبي.

وخرجا من المكتبة. وقال رأوول: ولكن لا تتوهمي أن هناك أشياء بحق الله. أنت لست في خطر.. في الوقت الحالي على الأقل، فنحن نواجه رجلا يأخذ كل وقته ويتصرف تصرف القناص، فهو يلقى بشباكه وينتظر في صبر في الأماكن التي يمر ضحاياه دون حذر... ولكن إذا توخينا الحرص وظللنا متيقظين فلن نتعرض لأي خطر... الخوف ممنوع وأنا غائب.

لن أخاف.

وبسطت له يديها في براءة، وأحس بأن رباطة جأشه ستخونه فتمتم:

أمضى سريعا. أعطيني هذا المفتاح لكي أذهب. آه.. نسيت.. سأستقل السيدكار، ولك أن تقولي لأشيل ما تشائين.

وانتظرها أمام إحدى النوافذ الكبيرة التي تطل على فناء الشرف. كان كلما ازداد تفكيرا كلما ازداد اقتناعا بأن العدو ذكي وشديد الحرص لكي يقوم بمحاولة أخرى فورا، وكلما ازداد اقتناعا كذلك بأن العم الفونس يلعب دورا في هذه المأساة الغامضة. ولكن كيف؟ .. إنه لم يكن يستطيع أن يظهر حتى لا يفتضح أمره على الفور. ولكن ذلك الذي كان رأوول يدعوه بالوحش كان يبدو أنه يعيش في جوار يل فيرانج، ويتجول في القصر كمخلوق خفي. كان هناك سر مخيف في هذا الصدد.

قالت لوسيل: ها هو المفتاح... توخ الحرص.

كانت تقف بجواره، بريئة، مطمئنة، آمنة بوجه أنثي وعيني طفلة، وأردفت تقول في تلقائية: سأفكر فيك كثيرا.

وهم بأن يصرخ: ولكن احتمى بالله. ألا ترين أنك تعذبينني، وأنني لا أطيق.

وأخذ المفتاح واختفى. ونقل غضبه الذي يغلي في كيانه إلى الموتوسيكل، على أن غضبه هذا لم يكن غضبا بمعنى الكلمة وإنما كان حزنا وشجنا، وخطر له لحظة أن ينعطف إلى طريق آخر لكي يمضي ويستجوب الشيخ برناردان وأن ينتزع منه سر يونرفيل طوعا أو كرها،

ولكنه عدل عن غرضه هذا خوفا من أن يضيع وقتا ثمينا. ولكن عندما وصل إلى الهافر تعطل الموتوسيكل واضطر أن يبحث عن جراج وأن يعود بالميكانيكي الذي راح يفحص المحرك في غير اقتناع ويردد في إصرار: إنها الشمعة .. هي الشمعة بالتأكيد.. وعندما أصبح السيدكار صالحا للاستعمال أخيرا كان الليل قد بدا يهبط، ولو أنه مرت دقيقة أخرى على الميكانيكي لما كان هناك أي شك في أن يكتم رأوول أنفاسه.

وانطلق أخيرا في طريقه إلى سانت إدريس، واندفع غير آبه بالحفر والأخاديد حتى الطريق المؤدي إلى الصخور والمنحدر حيث يقع بيت «الصخرة الكبيرة» وحيث يجب أن تكون «كرمة القديس جان» على يمينه. وترك السيد كار خلف أجمة وسار مسرعا. كانت كرمة القديس جان هناك حقا يحيط بها سور قديم يكاد يكون مدفونا في غابة من النباتات المتسلقة ويستطيع طفل أن يتسلقه دون صعوبة. واجتازه رأوول ورأى البيت. كانت لوسيل قد تكلمت عن مزرعة قديمة، وتوقع أن يجد بيتا قديما ولكن كانت دهشته كبيرة حين رأى بيتا حديثا تعلو بابه تعريشة جميلة.

كانت النوافذ مغلقة بمصاريعها الخشبية، ولم يكن هناك أي نور في الطابق الأرضي ولا في الطابق العلوي. ومع ذلك فقد كانت هناك هالة من النور حول السطح. وراح رأوول يتحرك بدون صوت فدار

بالبيت وتراجع بضع خطوات إلى الخلف، وأدرك على الفور أن الضوء المبهم الذي يثير حيرته ينبعث من كوة فوق السطح، ولا شك أن والد لوسيل قد أقام له مرسما، وعندما كانت الظروف تمنعه من الذهاب إلى الصخرة الكبيرة كان يرسم لوحاته فيه. ولا ريب أن أخاه كان في تلك اللحظة في المرسم يكتب أو يقرأ.

كان بيت الخزين يرتفع بجوار الجدار، ولم يكن تسلق السطح يشكل مشكلة ما. وقد اجتاز رأوول العقبة كالشبح، مستعينا بشجرة لبلاب قوية. ولم يعد أمامه إلا أن يتقدم حتى المرسم وهو يتوخى الحذر التام. وألقى نظرة وما كاد يفعل حتى تجمد مكانه.

رأى تحته رجلا عرفه على الفور.. خادم البارون.. ذلك الذي هدده بالمسدس. وكان يضع يديه في جيوبه ويدخن سيجارة وينظر إلى الجزء الذي لم يتمكن رأوول من رؤيته بعد. كان لابد له لذلك أن يتقدم أكثر، ولسوء الحظ كان القمر بدرا وكان من الممكن أن يعكس ظله على أرضية المرسم. ولهذا تقدم بمنكبيه بضعة سنتيمترات، وكان كلما ازداد تقدما كلما اتسع المنظر تحته. كانت هناك كتب لصق الجدار، وفوق منضدة مجلة لا تزال مفتوحة، ولكن أين ألفونس؟

ولم يلبث أن رآه، وتوترت ملامحه على الفور، لأنه رأى ألفونس موثق اليدين فوق مقعد والبارون جالسيران يقف مصوبا مسدسه نحوه.

رأى كل شيء في وضوح وخيل له أنه يحلم، وفي هذه المرة لم يكن رأوول ممددا على صدره فوق الأرض الصلبة وانما فوق سطح، ولم يكن المجرمون يحرقون قدمى الضحية ولكن الأمر كان أسوأ.. كانت المسألة مسألة ثوان، وكان من السهل أن يفهم كلمات البارون رغم عدم سماعها: واحد.. اثنان.. ثلاثة.. السر وإلا قتلتك.

كان فيرانج يحرك رأسه ذات الحاجبين الكثيفين التي تجعله يشبه هوبير. وكان يقول: لا... خمسة.. ستة.. سبعة.. جالسيران يوشك أن يطلق النار، وصعدت صرخة في حلق رأوول: «كلا. إنك لن تقتله أمام عيني بكل جرأة». وزحف أكثر.

وكانت كارثة، فإن لوح الزجاج الذي كان يتكئ عليه انكسر فجأة. ولم يجد إلا الوقت الكافي لكي يرتمي جانبا ثم يرتد حتى الجزء الصلب من السطح. ووقع لوح الزجاج في المرسم وتفتت متناثرا فوق الأرض.. الهرب.. كان لابد من الهرب لإقصاء المجرمين عن فريستهم. وسوف يتفاهمون إذا ما بلغوا الأرض المكشوفة.. رجل إزاء رجلين.. كانت اللعبة غير متعادلة وهي معركة خاسرة مسبقا بالنسبة للبارون.. وفكر رأوول... ليتهما لا يطلقان على الرصاص، فمع أناس حمقى مثل هؤلاء يمكن توقع كل شيء.

وأسرع إلى سطح المخزن، ورغم أنه كان واثقا من نفسه ومن سرعة

قدرته على الارتجال فقد راح يلعن نفسه لأنه أتى من غير أن يأخذ معه سلاحا، فإن المسدس الضخم الذي احتفظ به سيد القصر في درج مكتبه كان يمكن أن يساعده. وفي اللحظة التي لمست فيها قدماه الأرض سمع صيحة: من هنا.. فأسرع نحو الجدار وهو محني الظهر.

ودوت طلقة خلفه فاعتدل واقفا وهو يسب ويلعن، ووثب فوق الجدار ولكنه سمع هذه المرة الرصاصة ترتطم بالصخرة، على مقربة منه. كان الريف يمتد أمامه مكشوفا والقمر بدرا ينير المكان بحيث إن رأوول كان يرى خياله تحت قدميه كما لو كان الوقت نهارا. واسرع نحو الصخور تشيعه رصاصتان أخريان. وراح يفكر وهو يجري: ليس في مقدورهما اللحاق بي ولكن إذا أنا هربت فقد تصيبني رصاصة.. لا تهرب.. لا تهرب.. آه. يبقى حل واحد.. وحل واحد فحسب وانحرف نحو البحر، وإذ تأكدالآخران أنهما سيضيقان عليه الخناق في الفضاء كفا عن إطلاق النار واهتدى على الفور إلى الطريق المؤدي إلى الصخرة الكبيرة. وكان الرجلان يشقان طريقهما في المنحدر، فوقه في مشقة لوعورة الدرب، وراحت الحجارة تتدحرج. وبلغ رأوول البلاج. ومضى نحو البيت دون أن يسرع.

وصاح البارون: سلم نفسك، فلا سبيل لك إلى الهرب.

ووقف رأوول على عتبة الباب ورفع يديه. ووصل الرجلان وهما

يلهثان بشدة ويشهران مسدسيهما في عزم وقوة. وقال رأوول:

حسنا.. حسنا.. لقد ربحتما.

وكرجل مصمم على الحديث فتح الباب ودخل وتبعه الآخران. وكان ضوء القمر يتسرب من خلال النوافذ. ومع ذلك فقد أضاء الخادم مصباحه.

قال البارون: حسنا. لن يزعجنا هنا أحد. إن لدينا حديثا طويلا يا صديقي العزيز.. أمور كثيرة.. اجلس.

هذا لا يصح.. تفضل أنت أولا.

قلت لك اجلس .. مفهوم يا لوبين؟

ما دمت تصر بهذه المجاملة التي تناسبك تماما، فليكن.

وجلس رأوول وعقد ساقيه في غير اكتراث. وأخذ البارون المقعد الآخر، وقال في خشونة: أنا الذي ألقي الأسئلة.

كلا.

ماذا؟

كلا. فطالما لم يعد رجلك المسلح مسدسه إلى جيبه فلن أتكلم.

سوف نرى. هذا قراري.

ومرة أخرى خضع البارون لقوة عدوه فأتى بإشارة أخفى الخادم مسدسه على أثرها، وعاد رأوول يقول: وبهذه المناسبة، ألم يشترك رجلك الدميم في الحفلة؟ هل تركته في البيت؟ هذا إذا لم يكن مستقرا

في قاع السين.

وإزاء توتر البارون أدرك رأوول أنه لمس الوتر الحساس. وتثاءب في أدب، خلف يديه، ثم قال:

ألست ظمآنا.. إن الجري هكذا بعد العشاء يصيبني بالظمأ. صاح البارون: لن تشعر بأية رغبة في أن تشرب فيما بعد.

هذا جائز. ولكن كأسان من الشمبانيا في هذه اللحظة بالذات سيكون على الرحب. هناك بضع زجاجات من الشمبانيا في المطبخ. قد لا تكون الخمر معتقة بما فيه الكفاية، ولكن شيئا أحسن من لا شيء.

وقال يخاطب الخادم: البس قفازك الأبيض وامض وائتنا بزجاجة.. سوف يسرني جدا أن نتناول كأسا.

قال البارون وهو يضحك ضحكة ثقيلة: ما دامت هذه رغبتك الأخيرة فلا بأس بكأس من الشمبانيا.

أزاح الخادم الستارة التي تخفي مدخل المطبخ وهو يقول: هل هي هنا؟

أجاب رأوول: نعم. على اليسار مباشرة.. الزجاجات مرصوصة فوق المائدة... إنني أعرف ذلك، فقد رأيتها.

وأردف يقول في غير اكتراث لكي يثير اهتمام البارون: كان في نيتي أن أنقل الشيخ بناردان هنا.. ولكن تصور أن ... .

بدأ البارون يقول: آه.. هذا ما أريد أن أتحدث عنه بالذات.

قطع عليه الكلام قرقعة مفاجئة، فقدابتلع الشرك الخادم. وهب البارون على قدميه وهو يقول: ما هذا؟ .. ماذا تصنع؟

وأزاح الستارة، ووقف مصعوقا وهو يرى الغرفة شاغرة. ولم يترك رأوول له الوقت لكي يعود في دهشته فأسرع نحوه ودفعه بقبضته إلى الأمام. ووجد البارون نفسه يندفع نحو الشرك، واختفى بدوره وهو يصرخ.

وجفف رأوول أصابعه بمنديله وهو يقول: أف!.. إن التسليم من الباب للباب أمر مرهون. إنني لأستحق حقا أن أتناول كأسا بعد هذه المشقة.

ودار بالباب القلاب، والتقط في طريقه المصباح الذي وقع من الخادم ودخل المطبخ. وهناك، ورغم توتره العصبي انفجر ضاحكا.. كلا .. إن هذا لأمر غير مصدق. لقد صدق من غير أن يدري. كانت زجاجات الشمبانيا موجودة، ولكنها لم تكن مرصوصة فوق المائدة وإنما على الأرض. كان هنا ست زجاجات.. آه يا بارون، هذه متعة ليس بعدها متعة وإنني لأشكرك.

ولكنه كف عن المزاح على الفور.. هذه الزجاجات.. فكر في وليمة الذكرى السنوية التي أعدها جاك فيرانج بكل الحب... ووجد في الشمبانيا مذاق الدم. وعاد إلى الستارة في صمت وأصاخ السمع. كانا يكثران من الحركة تحت قدميه. وانحنى نحو الباب القلاب وصاح:

لا داعي للتعب والإرهاق أيها الصديقان فلن ينجدكما أحد.. ولكن

أنا أستطيع.. هل تسمع يا بارون؟ لا يوجد هنا غير شخص واحد يلقى الاسئلة، وهو أنا.. فأجبني إذن. ماذا كنت تطلب من الفونس فيرانج بكل تلك الرقة، هيا. تكلم، فإنني بحاجة إلى النوم، ولن أبق هنا طوال الليل.. كلا؟ اعلم أنني لست بحاجة إليك. سأعود إلى الكرمة وأنقذ ذلك الرجل العزيز، وسوف يسره أن يخبرني بما أريد.. إذن؟ كلا؟ .. حسنا. كما تشاء. فلتتكلم الآن عن الخطاب.. أنت تعرف.. خطاب إنجلترا الذي يحمل طابع الملكة فيكتوريا.. فيما بيننا، هو خطاب ثمين يطيب لهواة جمع التحف الحصول عليه.. إذا أعطيتني إياه أفتح الباب.

دوت طلقتان اصمتان رجتا الأرض، وظهر ثعبان في خشب الباب. وقال رأوول: حسن جدا. أرى أن علاقاتنا ما زالت على توترها بعض الشيء. هذا أمر مؤسف.. ولكنني أحب مع ذلك أن أنبهك.. إذا كنت لا تعرف، فإن معكما رفاق في القبو.. نعم.. هيكلان. اذا تحسست الأرض في رفق فسوف تجدهما، وصدقني يا بارون إنه ليس من مصلحتك أن توقظهما.

ساد صمت عميق، وعاد رأوول يقول: هل تحب أن أقوم بواجب التعارف؟ جاك فيرانج وزوجته.. البارون جالسيران وشريكه.. ميتان تحت التنفيذ.

وردت عليه صرخة ذعر ثم ارتفع صوت البارون وهو يتهدج من الانفعال: لست أنا.. لست أنا.. افتح.. افتح.

سأله رأوول: من إذن؟

لا أدري.. أقسم لك.

أليس لديك أية فكرة؟

لم يأته أي رد. ولم يزد رأوول إصرارا فإن الليل سيكون خير ناصح للبارون.. وخرج وأغلق الباب في عناية كبيرة. وكانت الحصى تبرق تحت ضوء القمر حتى الأمواج الأولى التي تتلاطم فوق الشاطئ من بعيد. وأحس رأوول بالتعب، ولكنه ما كان ليرضى بالراحة ولا حتى بالجلوس لحظة لكي يمتع عينيه بهذه السماء التي تتناثر فيها النجوم.. كان شغله الشاغل أن يسرع إلى الشيخ برناردان في بيت فيكتوار.. وفكر .. البارون في القبو.. وألفونس موثق القيادة فوق مقعده.. لقد كثر عدد الأسرى.. يجب أن أفتح سجنا قريبا.. وفي بطء صعد الدرب وهو يتوقف من لحظة لأخرى لكي يسترد نفسه مستمرا في تأملاته. لا ريب أن البارون لم يكذب عندما قال إنه لا يدري من الذي قتل جاك فيرانج وزوجته، ووقوعه في الفخ دليل على أنه لم يكن يعرف شيئا عنه. ولا ريب كذلك في أنه لم يشترك في الاعتداء المدبر ضد لوسيل ولا ذلك الذي وقع للوصي على الفتاة. هناك شخص آخر يعمل في الظلام، وهو يخطط لجرائمه بكل ذكاء ودهاء وينفذها في غير رحمة، في الخفاء، دون أن يعرف أحد شيئاً عنه.

سرت قشعريرة في بدن رأوول. كان يكره النضال في الخفاء. هذا الرجل الشجاع، القوي. الذي يعرف كل الحيل كان يخاف من كل من يضرب غدرا وخيانة، ومن كل من يضع قناعا ويتقدم في صمت وسكون الذراع كما يفعل الأوغاد والأوباش. وبلغ الشاطئ.. هل يتكلم ألفلونس فيرانج، فلا شك أنه يعرف شيئا وإلا لما جاء البارون. لا أحد في المكان.. لم يسمع أحدا صوت الطلقات.. لم يكن في الجو غير زقزقة العصافير.. لا حاجة به الآن للوثوب فوق الجدران وتسلق المخزن.. كانت كل الأبواب مفتوحة، فقد خرج البارون وشريكه مسرعين. وأسرع رأوول واجتاز البهو الذي تغطى اللوحات جدرانه، حيث يقع في آخر سلم صغير صعد درجاته في طرفة عين ودخل المرسم.

كان ألفونس فيرانج منهارا فوق مقعده وهو لا يزال موثق القياد وقد اخترقت رأسه رصاصه.

المذبحة

وهكذا ضرب الوحش ضربته، بل لعله لا يزال في
البيت لأن جسد ألفونس فيرانج كان لا يزال دافئا،
وابتعد رأوول عن الجثة وهو يسحق تحت قدميه
الزجاج في صوت صاخب رغم حذره وحيطته.

ووقف في ركن خفي لا يمكن لأحد أن يراه منه سواء من الخارج أو من رأس السلم. كان يجب أن يرسم خطة سريعة مفاجئة وأن يبادر بالهجوم وإلا فإن جرائم جديدة يحتمل أن تقع. ومع ذلك فإن رأوول لم يستطع أن يحول عينه عن الجسد الموثق القياد. انتابه الحزن فإنه في اهتمامه بنضاله مع البارون لم يخطر له أن «الآخر» يمكن أن يكون موجودا في ساحة المعركة في نفس الوقت. وفي اللحظة التي اعتقد فيها أنه أصبح سيد الموقف إذا به يغلب على أمره بصورة نهائية وبطريقة مهينة ويقهره رجل أكثر منه حدة وذكاء... رجل يتمتع بقوة وضراوة ينتهز أهون الفرص للقتل.

تردد رأوول فجأة وهو لا يدري أي تصرف يجب اتخاذه. أذهلته المفاجأة وأحنقه إحساسه بأنه أقل من مسئول. وقف جامدا لا يتحرك ويداه في جيوبه يحاول أن يحلل الموقف. إنه أخطأ في اشتباهه في

ألفونس فيرانج. لم يكن هناك شك الآن في أنه برىء آخر يدفع. ولكن ما معنى هذه المذبحة؟ واضح الآن أن آل فيرانج يملكون سرا لا يعرفونه وقد استولى البارون على مذكرات الكونت يونرفيل في البداية لاكتشاف هذا السر. وإذا لم تفده المذكرات في شيء اختطف الشيخ برناردان، ثم حصل بالدهاء والحيلة على خطاب إنجلترا، ولكن الخطاب لم يفده هو الآخر ما دامت نيته قد اتجهت إلى الاعتداء على الفونس. ولعل ذلك يسبب كرمة القديس جان. كل هذا كان يبدو واضحا بما فيه الكفاية. أما الشيء الغامض الذي لا معنى له ولا منطق والذي يزخر بالثغرات والمتناقضات فهو نشاط الآخر المخيف .. جريمتا الصخرة الكبيرة والاعتداء المدبر على لوسيل والآخر الذي راح عمها هوبير ضحية له.. كلها فخاخ منصوبة، ربما منذ أسابيع.. فلماذا كل هذا البطء الذي يتسم بالمكر والخبث، وما هي الغاية التي يسعى إليها المجرم على وجه الخصوص. هل يريد أن يكتشف السر هو الآخر؟ ولكن بأية وسائل ينوي الوصول إلى غرضه؟ هل يعلم بأمر المذكرات؟ والخطاب وكلمات السر، تلك الكلمات التي اضطر برناردان إلى البوح بها تحت وطأة التعذيب؟ وهل ذهب أبعد من البارون في اكتشاف الحقيقة؟ وإذا كان السر ما زال مستغلقا عليه، أفليس ذلك لأنه يقوم على أسس غامضة وعلى رموز عجز الاهتداء إلى حل طلاسمها؟

وعاد رأوول يقول: أما أنا فيجب أن أهتدي إليها، بل إن الأمر أكثر من ذلك. كان يجب أن أكون قد اهتديت إليها. ربما لا ينقصني غير نقطة واحدة فأنا لم أدرس العناصر التي أملكها بما فيه الكفاية. ونسى المنظر الدرامي الذي يطالع عينيه، وأسرع فاستعاد إلى ذهنه كلمات الشيخ برناردان وكلمات الأستاذ فرينيزو. ماذا قال موثق العقود؟ «لماذا أصر الملك لويس فيليب، وهو هارب، على العودة إلى قصر يونرفيل فجأة متحديا هكذا خطر الموت؟» كانت هذه العبارة هي الأخرى مفتاحا لحل اللغز، فقد عاد الملك لسبب قهري وقام بإجراء شهده إيفاريست فوتيريل الخادم الأمين، أبو برناردان. وقد انقرضت عائلة الكونت يونرفيل ولكن آل فوتيريل ما زالوا على قيد الحياة، ومن هنا اختطاف الشيخ وتصرفات البارون تبدو معقولة ولكن لماذا اعتدى «الآخر» على آل فيرانج؟.. هنا الغموض من جديد.

تنهد رأوول طويلا وبدا كأنه يصحو. هل يفنش الجثة؟ لكن ما الفائدة؟ لو أن المسكين كان يملك شيئاً ذا أهمية فإن العدو قد حصل عليه. بيد أن رأوول كان يملك ورقتين رابحتين، وعليه الآن أن يلعب بهما، والورقة الأولى هي البارون، فبعد أن يمعن هذا الأخير التفكير والتروي في حفرته، وبعد أن يعلم أن ألفونس فيرانج قتل فإنه سوف يدرك أن من مصلحته أن يتكلم، ومهما يكن فسوف يحصل رأوول على خطاب إنجلترا، ثم يبقى

عليه بعد ذلك أن يحمل الشيخ برناردان على الكلام.

هبط رأوول السلم القصير واسترد نفسه لثاني مرة، وأحس بأن الحياة تحمله من جديد، كزورق يرفعه ماء البحر شيئا فشيئا، وقبل أن يغادر البيت ألقى نظرة خبير إلى اللوحات التي رسمها جاك فيرانج ومهرها بتوقيعه وتمتم يقول: أقل من المتوسط .. مسكينة لوسيل! لم يكن أبوك يتمتع بأية موهبة في الرسم.

وعندما هم بالخروج تمالك نفسه ومضى إلى المطبخ، وأخذ بعض الخبز واللحم البارد: إذا أردت أن أحملهما على الكلام فلابد من إغرائهما.

وابتسم لأنه كانت في الردهة مرٓ كبيرة عكست صورته، وأومأ برأسه لنفسه مشجعا. لم تكن الساعة ساعة مزاح أو مداعبة، ولكنه كان ند راض نفسه منذ وقت طويل على التغلب على مشاعره أمام الموت. وعاد إلى طريق «الصخرة الكبيرة» وبحركة آلية اقتطع كسرة من الخبز وأخذ يأكلها وهو مسرع. وكان منظرا مذهلا أن ترى هذا الموظف البسيط الذي يرتدي جاكتة فضفاضة من الجوخ وهو يأكل على ضوء القمر ويضم إلى صدره طبقا من اللحم وبعض الخبز ويخاطب خياله المفرط الطول الذي يصاحبه في سيره.

«مساء الخير يا دون كيشوت. يسرني أن ألتقي بك، فأنت لم تظهر إلا فيما ندر، منذ بعض الوقت. هل تسمح أن أغذيك قليلا فإنني لم أرك

أبدا بمثل هذا الهزال.. ذلك أنك لقيت منهم الكثير .. آه .. ليس غريبا أن تدافع عن اليتامى كل يوم، فهذا يضرب ذات اليمين وذاك يضرب ذات الشمال. ولكن اعترف أنك لن تكون أنت نفسك إلا إذا لفظ الجحيم أبالسته السوداء عليك. تعالوا أيها الأبالسة لكي أمزقكم إربا.. هذه الفطيرة لذيذة.. ذقها واستمتع بالحياة.. إنهما في انتظاري.. امض. كلا، أنت على عجل دائما .. تصور أنني أيضا مثلك .. حذار، فقد تقع على أم رأسك.. ها هو طريقك»..

واندفع رأوول في الدرب الضيق ووقف أمام الكوخ... لم يكن يقطع الصمت غير دوي الأمواج البعيد. ودخل، وقال: مساء الخير أيها الصديقان. لقد أتيتكما ببعض الطعام.. وجبة صغيرة تسندكما شيئا ما.. في مقدوركما أن تشكراني على الأقل.. ماذا؟ أغاضبان أنتما؟

وفي حركة خرقاء فتش في جيوبه بحثا عن المصباح الكهربي دون أن يتخلى عن الطعام. وأضاءه أخيرا وأزاح الستارة وأفلتت من بين شفتيه سبة فقد كان الفخ مفتوحا وطرف السلم يبرز منه.. لقد هربا... طارا... ولكن من الذي خلصهما؟ .. من «الآخر طبعا» فلابد أنه كان يراقبه وأسرع إلى الكوخ بمجرد أن رآه يغادره .. وألقى بالخبز والطعام على المائدة وعاد إلى القبو وبعث ضوء المصباح داخله.

وأخذته غصة على الفور، فقد كانا موجودين. كانا ملتصقين بالسلم

ورأس كل منهما ما تزال مرفوعة إلى أعلى، وكانا ملوثين بالدم وقد تجمدت عيناهما رعبا وذعرا. أصيب كل منهما في مقتل وفاضت روحه على الفور.

ورأى رأوول بعين الخيال رغما عنه تلك اللحظة الأخيرة.. السلم يقلب باب الفخ والبارون يسرع قبل خادمه ولكن اليد المسلحة تظهر فجأة، وتنطلق الرصاصتان تتبعهما حشرجة الموت ثم الصمت المطبق.

لم تعد لرأوول القدرة على التحرك.. لم يخطئ حين خطر له أن البارون ورجاله ما هم إلا شركاء للوحش. لقد لعب البارون دوره الأخير وخسر. أما «الآخر» فبعد أن تخلص من ألفونس فيرانج تابع عملية الموت في القبو ولم يعد أمامه إلا أن يهبط لكي يأخذ خطاب إنجلترا من جيب القتيل. والآن؟

بعد استبعاد البارون يبقى الغريمان وجها لوجه. رأوول وشبح من المتعذر إمساكه.. شبح موجود في كل مكان وغير موجود. يضرب تارة في بطء بحذق غادر وأخرى بوحشية وبسرعة الكوبرا.واخترقت فكرة مخيفة ذهن رأوول فجأة .. برانردان.. ما دام «الآخر» يعرف كل شيء، وما دام يسبق غيره كما لو كان يقرأ أفكار خصمه فلعله يعرف الآن مكان الشيخ العجوز!.. ولعله في هذه اللحظة بالذات.. كلا.. لو حدث هذا فإنه ليكون أمرا فظيعا.. ولام نفسه لقضائه اليومين الأخيرين من غير عمل، بجوار لوسيل الفاتنة.. ما كان يجب أن..

وانتصب رأوول واقفا ضاما قبضته وهو يغلي من الغضب. يجب أن يسرع بالعمل وأن ينقض على الآخر انقضاض الصاعقة وأن يدبر وسيلة للدفاع قبل أن يفوت الأوان. واندفع خارج البيت، ومن الهزيمة برز رجل المناسبات العظيمة الذي لا يمكن أن يوقفه شيء.

وأسرع نحو قمة الشاطئ حيث ترك السيدكار. وأدار المحرك وجلس على مقعد القيادة، واندفع الموتوسيكل في دفعة غاضبة. كلا. لا يمكن أن يكون الوقت قد فات فإن «الآخر» لا يملك وسائل خارقة. ولكن لعله يستخدم سيارة.. إذن.. ؤن المسألة الآن مسألة سرعة، وهي مباراة كان رأوول واثقا من كسبها.

راح الموتوسيكل ينطلق بأقصى سرعة ورأوول يهتز فوقه بشدة. ولحسن الحظ كان ضوء القمر يملأ الطريق بنوره لأن السيدكار لم يكن مزودا بأية مصابيح، وساقه رأوول كيفما اتفق وهو يضغط على أسنانه وريح السباق تجمد العرق فوق جبينه. واندفع أكثر من مرة فوق العشب وأوشك أن يقع، ولكنه كان يعود إلى الطريق في إصرار ويندفع في جوف الليل. وعندما رأى بيت فيكتوار الأبيض من بعيد لم يكن قد التقى بأحد ولم يسبقه أي أحد. كان وحده تماما، وكان واثقا من أنه وصل قبل «الآخر».

وضغط على الفرامل بشدة بحيث انزلق الموتوسيكل ودار به دورة كاملة ولكنه لم يعبأ بذلك ومضى نحو باب الحديقة وهو يترنح. كان

من الجنون أن يتملكه الخوف هكذا. هل كان يترك العنان للخوف لكي يستولي عليه هكذا فيما سبق؟ ولكنه لم يكن خوفا، وإنما كان حرصا وحذرا. بل لعله إفراط في الحرص والحذر، وهو قد تصرف حتى الآن تصرفا أهوج وبدون ترو حقا، ولهذا عاهد نفسه وهو يدفع باب الحديقة أن يضاعف الحراسة بعد ذلك. وطرق باب البيت ثلاث مرات وهو ينتظر أن تفتح فيكتوار النافذة لأن نومها خفيف، وتلقى إليه بالمفتاح.

وصاح في صوت خافت: فكيتوار.. فيكتوار.. افتحي لي.

وضاعف القلق خوفه وجف حلقه.. فكيتوار.

وتأهب لكي يحطم الباب وهز الأكرة في غضب ولكنها دارت في يده بسهولة وانفتح الباب.. لم يكن موصدا بالمفتاح.

-عجبا!

وأضاء مصباحه وأسرع يرتقى السلم في غير حذر. كانت فيكتوار ممددة فوق فراشها موثقة اليدين ومكممة وفوق عينيها عصابة. ولم يفكر رأوول في أن يضيع الوقت في تخليصها وإنما اندفع إلى الغرفة المجاورة. كان برونو هو الآخر موثق اليدين والقدمين وفي فمه منديل.

-يا للشيطان! وأفلتت قدمه إحدى الدرجات وكاد يقع لو لم يتشبث بالدرابزون، وكبا على ركبته ونهض وهو يعرج. واندفع إلى غرفة برناردان.. كان المزلاج قد رفع من مكانه فدفع الباب بركلة من قدمه..

كانت الغرفة خالية.. اختفى العجوز.

أحس بالإعياء وتهالك فوق الفراش وأخذ رأسه بين يديه. لم يكن هناك شك الآن في أن الآخر قد عرف السر، فهو يملك الخطاب وبرناردان.. ولكن ما هذا السر الذي مات بسببه كل هؤلاء الضحايا.. وعصف الألم برأوول ونزف قلبه دما وأحس بحاجته إلى أن يلوذ بجوار فيكتوار، ومضى فقطع قيودها وأزال الكمامة عن فمها ودفن جبينه في صدرها.

فيكتوار.. عزيزتي فيكتوار... وبقى جامد الحركة مدة طويلة كما لو أنه أراد أن يستمد من صدرها قوة جديدة، ولزمت فيكتوار الصمت ولم تفكر في الشكوى وذراعها حول عنق ذلك الذي ربته وأطعمته وملأ حياتها صخبا ومآس. ورفع رأسه أخيرا وقال: ماذا حدث؟

ولكنني لا أدري. كنت في المطبخ، وسمعت حركة خلفي، وحسبت أنه برونو فلما التفت، وأحسست بشيء يوضع حول رأسي فلم أرى شيئا.. إنني أصبحت امرأة هشة بعد أن بلغت هذه السن، وتملكني الخوف وفقدت رشدي على الفور. وعندما عدت إلى الوعي وجدت نفسي هنا موثقة اليدين والقدمين كما وجدتني.

متى حدث هذا؟

حسنا. قبيل الغداء. كنت أعد عجة لأن برونو يحبها مثلك .. وكان في الحديقة يجمع لي بعض البصل.. ولكن ماذا حدث له.

إنه في الغرفة المجاورة موثق هو الآخر.. ولا ريب أنه يجد الوقت طويلا. انتظريني هنا يا عزيزتي فيكتوار.. سآتيك به.

ومضى رأوول فقطع قيود برونو التعس، ونزع المنديل عن فمه.

آه. أهذا أنت أيها الزعيم؟ .. ولكن العجوز.. ماذا حدث له؟.. اختطفوه.

هذه غلطتي أنا. كان يجب أن أحترس، ولكن كان كل شيء هادئا. ثم إنني كنت أعرف أنك قريب. كنت في الحديقة وتلقيت ضربة على رأسي. ألم يتكلم برناردان؟

هو؟ إنه أشد عنادا من البغلة. ولا حتى صباح الخير أو مساء الخير. سوف يتكلم الآن. سوف يعمل خاطفه على ذلك ما دام لم يقتله كما.

توقف رأوول. لا حاجة به لأن يطلع برونو على مجرى الأحداث، فهو قد عانى الكثير حتى الآن.

إنني آسف يا زعيمي. آه. وإنني لغاضب من نفسي.. غاضب جدا.

لا عليك يا صغيري.. ليس الذنب ذنبك، إذا كنا قد وقعنا على شيطان حقيقي. بل إنك محظوظ، فقد كان في مقدوره أن يقتلك أنت أيضا، وإنني أتساءل لماذا لم يقتلك.

وضغط بشدة على ذراع برونو ثم قال: وهذا هو الأمر الذي يخيفني ويثير حيرتي. هناك منطق لا أفهمه. إن نقطة الضعف عند الذين تغلبت

عليهم حتى الآن هي أنهم يفكرون مثلي، ولكنني أفكر أسرع منهم، أماهو فإنه يحيرني.

خير. أصابها من الخوف أكثر مما أصابها من الضرر. إن ه كيف يمتنع عن الأذى عندما يريد. تعالى لكي تراها.

وقادته إلى غرفة فيكتوار، وكانت المرأة العجوز قد استردت قواها، وقالت تخاطب رأوول: أرح قلبي وطمئني يا حبيبي.. ألن تكف أبدا ... ألست غنيا بما فيه الكفاية؟

أجاب رأوول في اكتئاب: ولكنني لا أسعى وراء المال ولا وراء المجد ولا وراء أي شيء. إنني أذود عن نفسي فحسب. سوف تبقين هنا يا فيكتوار، وأعدك أنه لن يقع لك شيء بعد اليوم. أما أنت يا برونو فعد إلى باريس. وإذا احتجت إليك فسأبعث في طلبك.

حسنا أيها الزعيم. ولكن لعلك لا تطردني، فإنني ما زلت جديرا بأن أخدمك. لو أنه لم يضربني من الخلف.

وراح يدعك رأسه في تفكير: عندما أفكر أنني لم أسمعه وهو يقترب مني.

قالت فيكتوار: هل تريد فنجانا من القهوة؟

نعم. وأشكرك يا عزيزتي فيكتوار فإنني في مسيس الحاجة إلى منعش.

القديس جان يخلف يعقوب

بعد ساعة من ذلك، وبعد أن أودع رأوول السيد كار
الجراج عاد إلى القصر ولكنه لم يدخل غرفته
وإنما مضى رأسا إلى غرفة هوبير فيرانج.

كان المسدس مكانه، في درج الطاولة، وبعد أن تحقق من الخزان وضع المسدس في جيبه ثم طاف بالقصر في جولة تفتيشية.

وهكذا وقع برناردان المسكين بين يدي مختطفه منذ نحو اثنتي عشرة ساعة، ولم يجرؤ رأوول أن يتصور التعذيب الذي لابد قد تعرض له من جديد.. يا للشيخ المسكين! لن يراه أحد بعد اليوم بلا ريب، فسوف يخفيه «الآخر» بعد أن يحصل منه على المعلومات التي تنقصه، وهي معلومات لم يكن هناك أدنى شك في أنها أصبحت في حوزته الآن ولكن، من المؤكد أن سر يونرفيل يتعلق بشيء موجود في القصر، وعلى ذلك فسوف يدور الفصل الأخير من المهزلة بين هذه الجدران.. نعم.. سوف يقع شيء رهيب.. ولكن ما هو بالذات؟

كان رأوول مرهقا، ومع ذلك فقد مضى مرة أخرى إلى المعرض ووقف لحظة يتأمل لوحتي يعقوب والقديس جان. ولكن الوميض الذي

لمع في ذهنه عندما اكتشف هاتين اللوحتين خبا، وفحص الجدران مرة أخرى براحة يده زيادة في التأكد، ثم مضى إلى المكتبة ودخن سيجارة وهو جالس في مقعد سيد القصر وعاد يقول في بطء مركزا كل اهتمامه: القديس جان يخلف يعقوب. دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف.. وهناك دم بعد ذلك، لقد تكلم برناردان. ونام نوما مضطربا تسبب في إيلام جسده كل الألم، وكان يفتح عينيه من وقت لآخر ويتكلم صوت في داخله فيقول: «يجب أن أجد. لابد لي أن أجد» ولكن رأسه كانت تتهاوى فوق صدره من جديد.

وكانت لوسيل هي التي هزته فقال وهو يفتح عينيه:

- إيه.. ماذا؟.. أوه، لوسيل.

وتمالك نفسه على الفور ونهض وقد أخجله أن تراه وهو في هذه الحالة، دون حول ولا قوة، وتمتم: ولكن، كم الساعة الآن؟

- الثانية.

ــ أحسنت بإيقاظي. أردت أن أستريح لحظة فحسب، غير أنني غرقت في النوم. إنني عدت في وقت متأخر، ووقعت أحداث كثيرة.

- وهي أحداث لا تريد أن تطلعني عليها.

- أوه، ليس هناك ما أطلعك عليه بعد، فإنني ما زلت أتخبط وأجمع بعض المعلومات. سأمضي إلى دورة المياه بعد إذنك،

وسألحق بك في غرفة الطعام.

وأسرع بمغادرة الفتاة، بعد ذلك بدقائق وضع رأسه تحت صنبور المياه وهو يشعر بلذة كبيرة. كان يود لو أن يقف تحت الدش بيد أن القصر كان يفتقر إلى الكثير من الكماليات. ولكنه لم يحفل كثيرا بذلك وقال وهو يحلق لحيته: للضرورة أحكام.. المهم أن أبدو في صورة حسنة. وبخبرة الممثل أعاد إلى وجهه ومضة الشباب ونضارته.

ومع ذلك فقد كان متعبا حقا. غير أنه كان قد اعتاد منذ وقت طويل ألا يصغى إلى مطالبات جسده، فنفض ثيابه بالفرشاة في عناية كبيرة ولبس ياقة منشاة وربطة عنق أكسبته هيئة الموظف البسيط. وإذا عادت شخصية كتارا من جديد ازداد احساسه بطعم المغامرة. ولم ينس طبعا أن الخطر يزداد من دقيقة لأخرى، ولكنه كان يرفض مواجهته بوجه شاحب، ولم يكن يشعر بمدى قوته إلا عندما يكون مرحا. ودفعه التحدي إلى أن يأخذ زهرة قرنفل من الباقة التي فوق الموقد فثبتها في عروة جاكتته ثم نظر إلى المرآة مرة أخيرة وقال مازحا:

ــ ولكن ماذا فعلت حتى الآن أيها الأحمق.. هيا أيها الأبله، امض وغازلها وقل لها إن عينيها أضرمتا في قلبك نيرانا لا يمكن لأي شيء في الدنيا أن يطفئها. تحذلق وأطربها وحاول أن تنسيها أن الموت سبق وطرق الباب، وإذا استطعت فأطرب الموت أيضا.

وهبط إلى غرفة الطعام، وكانت أبولين تعد طعام الإفطار، وكانت تبدو غاضبة، وقالت:

- تبا لهذه الطفلة... منذ أن رحل جدها وقد أصبحت مستحيلة.
- سألها رأوول: ماذا فعلت؟

ــ إنها تسرق. سرقت أمس صندوقا من البسكويت أيضا.. مع أننا لا نمنع عنها أي شيء عادة. هذا تصرف مرذول ولكنني سوف أعاقبها.

قالت لوسيل: رويدك. اغفري لها هذه النزوة. إن الطفلة المسكينة تعيسة ولها الحق في كثير من التسامح، أليس كذلك يا مسيو كتارا؟

ــ أعتقد هذا. يمكنك أن تتغاضى عن هذا الأمر يا مدام أبولين، ولكن إذا أعادت الكرة فلابد من العقاب طبعا.

وأنهت لوسيل الموضوع قائلة: انتهى الأمر.

وعندما انصرفت أبولين تنهدت وقالت: كل الأمور تسير بطريقة عكسية. ولحسن الحظ أنك موجود وإلا فلست أدري ماذا يكون من أمري. إن أبحاثنا للعثور على برناردان ضاعت سدى، والجميع يعتقدون الآن أن مكروها قد وقع له. هل تظن أن هناك علاقة بين اختفائه وبين ما حدث.

كذب رأوول فقال: لا أدري. وكل ما أستطيع قوله هو أننا نقترب من النهاية .. ولكن أية نهاية.. لا أدري. هناك أحداث تجري، ويجب أن نكون على أتم الاستعداد.

وداعب رأس بولوكس، وكان راقدا بجوار لوسيل ثم قال: احتفظي به بجوارك، ولا تحسبي أنني أخرف.. وأرى الآن أن أعمل قليلا في المكتبة فلا داعي لإراحة الذهن إلا مثل هذا العمل الممل.

- ما دام الأمر كذلك فسأساعدك.

لم يجرؤ رأوول على رفض مساعدتها. وهل كان يمكنه أن يقول للفتاة: تجنبيني.. ألا ترين أن هذه المشاعر الحميمة شديدة الخطر بالنسبة لك ولي على السواء؟ .. فبمجرد قدومي تتذرعين بكل الحجج لمرافقتي في كل مكان. لو أنك كنت أقل سذاجة لعرفت معنى ذلك.. ثم إنني أكثر منك إثما لأنني أترك الأمور تجري.. ولكن عذري أنك جميلة وأنني وحيد.. إنني أجد نفسي وحيدا جدا عندما تتخلى عن المغامرة.

وذهبا إلى غرفة المكتبة وراحا ينسقان الكتب. وكانت تثرثر بين عنوانين تكتبها بخطها الجميل.. قالت:

- كيف فعلت لكي تحصل على تصريح من جريدتك.. إنني كنت أعتقد أن الصحفي يجب أن يعمل في مكتبه ليل نهار.

- كيف فعلت؟. آه.

كان رأوول يفكر في يعقوب والقديس جان فأسرع يقول كيفما اتفق: ذلك أنني أشتغل بالقطعة .. فأنا صحفي مستقل.

- بالقطعة؟ ما معنى هذا؟

- حسنا.. إنني أقترح موضوعا على الإدارة وينقدونني أجرى على كل مقال.
- ولكن هذا أمر مثير.. وددت لو أن أكون صحفية .. أيدفعون ثمنا لأي مقال؟
- طبعا.. إذا كان جديرا بإثارة اهتمام القراء.
- وعندما يرسل مقالا أو خطابا .. هل يدفعون له؟
- من؟
- أرسين لوبين.
- آه. ولكن. ألا تفكرين إلا في هذا الأرسين لوبين؟ إنني أغارمنه.

اصطبغ وجهها، وانحنت فوق السجل لكي تكتب في تركيز:

أرشيف نورماندي، ولكنها لم تلبث أن رفعت رأسها وقالت:

- لماذا لا تكتب له؟ إني قرأت أنه يحب فك الألغاز. ويوجد هنا لغز طبعا، أليس كذلك؟

نظر رأوول إليها.. شقراء، وهشة، وفاتنة.. وهز رأسه وقال: ربما أكتب له في الواقع.

- وهل تعرف أين يقيم؟
- أظن ذلك.

تمتمت لوسيل في أسى: أوه، إنه لن يزعج نفسه من أجلي فما أنا

بشيء يذكر.

- هل لك أن تسكتي؟ صدقيني إننا سوف نستطيع معا أن نجلو سريونرفيل.. آه، حذار.. أرشيبالد قبل أرشيف.

ومضت الساعات. وفجأة تذكر رأوول أنه نسى هوبير فيرانج المسكين تماما واضطرم وجهه بدره كطفل أذنب وقال:

- معذرة يا لوسيل.. وعمك؟ .. إنني لم أسألك عن أخباره.
- لقد طمأننا الطبيب . كسر بسيط . يجب أن أذهب لزيارته بعد الفراغ من الغداء..

واصطحبها أشيل. وكانت حالة المصاب طيبة. كانت ساقة موضوعة في الجبس وقد أسعده أن يرى ابنة أخيه وأسعده أكثر أن يعرف أنها في رعاية سكرتيره وأن تبويب الكتب وتنسيقها يتقدم بصورة مرضية. وقال يخاطب لوسيل: يجب إبلاغ عمك ألفونس، ولو بداعي الأدب. إنني أعرف طبعا أنه لا يهتم بنا أبدا، ولكنه سيشعر بالاستياء إذا نحن لم نطلعه بما حدث لي.

وتذكر رأوول أن صاحب كرمة القديس جان التعس كان يعيش وحده، ولا ريب أن الجريمة لن تكتشف قبل بضعة أيام. ومعنى هذا أنه لا زالت أمامه مهلة وأن الأحداث التي يخشاها سوف تقع حتما قبل ذلك. وتبادلوا حديثا وديا مدة طويلة ثم افترقوا في وقت متأخر من الأصيل، وكل منهم راض عن الآخر.

وقالت لوسيل والسيارة تدخل فناء القصر: سوف تعمل الآن وحدك، إذ يجب أن أجمع باقة من الزهور، ولك أن تطمئن.سوف يرافقني بولوكس في البستان.

- باقة؟ .. ولمن؟

- لماما.

دار هذا الحديث في الفناء، وأدهشت هذه الكلمة رأوول لغرابتها، ولكن منذ أن راح يفكر ويفكر في الكلمات العجيبة التي يكمن فيها حل اللغز وقد شرد ذهنه، وعاد يقول: لماما؟

- نعم، فإن غدا عيدها .. فقد كانت تدعى جان.

قال في لهجة مهذبة: آه .. كانت تدعى جان!

وفجأة أمسك بمعصم الفتاة وقال: ماذا؟ .. أكانت أمك تدعى جان؟ إذن فغدا عيد القديس جان؟ طبعا.

وترك لوسيل مكانها وأسرع إلى المطبخ. وكانت أبولين تقشر بعض البطاطس، وسألها: ألديك تقويم؟

نسى شخصيته التي يتقمصها، وبرز من خلال كتارا شخص مجهول متهور ملأ الغرفة بوجوده، وراح يضرب الأرض بقدميه. وجففت أبولين يديها في طرف مرولتها وتمتمت تقول في اضطراب: ها هو. ها هو.

- كم نحن اليوم؟

ــ الرابع والعشرين من يونية. أظن ذلك. لم أعد أدري كيف نعيش.

وراح أصبع رأوول يجري على عامود الشهور .. 24 يونية.. القديس يعقوب.. وأطبق عينيه، وانتظر حتى انتظمت ضربات قلبه.. 24 يونية.. عيد القديس يعقوب.. 25 يونية، عيد القديس جان.. 25 يونية يخلف 24.. القديس جان يخلف يعقوب .. وعانق أبولين، فأجفلت وصاحت تقول: ما هذا؟ .. لا ريب أنك جننت.

صاح: ألا تفهمين؟ القديس جان يخلف يعقوب.. وفي أية لحظة، هيه؟.. ألا تعرفين؟.. هل يجب أن أشرح لك كل شيء؟ في أية ساعة ننتقل من يوم إلى آخر.. لا حاجة بك إلى شهادة علمية لمعرفة ذلك.. في منتصف الليل طبعا.. في منتصف ليل 24 يونية يفوز دارتنيان بالمجد والثروة؟.. هل تسمعين؟ لله درك يا دارتنيان!

تمتمت الخادمة: ولكنك جننت حتما.

هتف يقول: طبعا جننت. جننت. جننت تماما.. نعم، جننت. كنت أنتظر هذه اللحظة منذ وقت طويل. كدت أموت ضجرا يا عزيزتي أبولين.. إن قصركم لا يدعو إلى الطرب أو المرح. ولكن لحسن الحظ أن القديس يعقوب موجود.. ماذا؟ .. تقولين ما معنى هذا.. دعيني أسترد أنفاسي أولا.. إن أمركم لغريب. فما أن تبدأ القصة حتى تريدون معرفة النهاية.. أهو دارتنيان الذي يثير اهتمامك؟ .. حسنا تصوري أنه

يثير اهتمامي أنا أيضا. ماذا يصنع في الرابع والعشرين من يونية؟ .. ليلة الانقلاب الشمسي بالذات؟

واستعاد وقاره وأعاد التقويم لأبولين وهو يقول: لا تراعي.. كنت أمزح. لقد أقمت رهانا. وهذا كل شيء. نعم، رهان، وأظنني سأكسبه.

وعاد فتقمص شخصية أمين المكتبة من جديد، وبدأت شكوك أبولين تتلاشى، وقالت: ليس من الخير أن تلهو هكذا يا مسيو كتارا.. لأن السيد لو عرف هذا فسوف يفصلك.

وعدها رأوول قائلا: لن أفعل ذلك مرة أخرى.

وأسرع فانضم إلى لوسيل وراح يساعدها في جمع أجمل الزهور وهو يبذل كل جهده لكي يتغلب على انفعاله.. أخيرا.. أول وميض حقيقي في جوف الظلمات.. إنه يمسك بآخر الخيط الآن... أول عنصر من عناصر السر كان تاريخا، وطبعا، ولهذا السبب بالذات أخذت الأحداث تتابع بطريقة سريعة ومأساوية منذ بضعة أيام، شيء على جانب كبير من الأهمية سوف يقع، وسيكشف العدو عن نفسه أخيرا. مرت شعلة الحماس الأولى واستجمع رأوول كل قواه وتغلب على انفعاله، وعبأ كل طاقاته لمواجهة المجهول. كف عن الكلام وراح ينتقل في بطء من مكان لآخر. وعندما جمعا ما يكفي من الزهور عادا إلى القصر في صمت. ومضت لوسيل مع زميلها إلى الصالون،

وتوقفت أمام صورة كبيرة موضوعة فوق منضدة صغيرة وقالت: ماما.

رأى رأوول امرأة عادية لا يميزها عن غيرها شيء، ترتدي قبعة عريضة مشجرة وذراعها فوق مقعد عاجي وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة وتقف أمام خلفية عبارة عن لوحة كبيرة من القماش تمثل أيكة جميلة، وسألته لوسيل: أليست جميلة؟

ــ جدا. ولكنه سرعان ما نسى أم لوسيل.. كان هناك سؤال يلح عليه.. أين سيقع الحدث؟ .. أعلى الشرفة؟ .. أم في المعرض؟ .. وماذا سيكون؟ .. إن عبارة دارتنيان يفوز بالمجد والثروة لا يمكن إلا أن يكون لها معنى واحدا.. لا ريب أنه يتعلق بشيء ثمين.. ثمين جدا، مخبوء في مكان ما.. سرت الرعشة في كيان رأوول ومر أمام مخيلته كل ماضيه . المجد والثروة.. كيف لم تحرك هاتان الكلمتان حتى الأعماق. ها هو قدره يعود مرة أخرى لكي يقوم باكتشاف عظيم .. ها هو يفي بوعده مرة أخرى، وهو موعد تاريخي طبعا ما دام الملك قد قضى الليل في يونرفيل وعاد إليها رغم الأخطار التي كان يتعرض لها وابتعد عنها أخيرا كرها.

وترك لوسيل تنسق باقتها ومضى إلى المعرض. ومشى في بطء وحاول أن ينظر إلى ما فيه بعين جديدة. ولكن لا اللوحات ولا السجادة ولا الأسلحة.. لم يوح إليه أي شيء من كل هذا بأية فكرة هامة.. القديس جان يخلف القديس يعقوب.. مجرد مصادفة .. فهاتان

اللوحتان لا تعنيان شيئاً .. والصدفة وحدها هي التي جمعت بينهما دون شك.. ودارتنيان هو الآخر مصادفة أو لعلها كلها أدلة كاذبة وضعت بالذات للتضليل والتمويه. واتخذت أفكاره عندئذ وجهة أخرى.. إذا كان ولابد أن يقع في نفس اللحظة التي ينتهي فيها يوم 24 يونية لكي يبدأ يوم 25 يونية فذلك يعنى أن هناك مخبأ معدا بطريقة أوتوماتيكية لكي ينفتح في منتصف الليل. ولكن هل يعني هذا أن ذلك المخبأ ينفتح في نفس الساعة وفي نفس التاريخ من كل سنة.. إنه ليكون مخبأ غريب إذن.. كلا. ليس الأمر كذلك. ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يستبعد فكرة المخبأ، وراح يتشبث ويمشي في كل ناحية من المعرض. لقد اكتشف في حياته الحافلة بالمغامرات مفتاح العديد من الألغاز الأخرى، وقد ظلت مستغلقة عليه مدة طويلة رغم أن حلها كان من أبسط الأمور لأنه لم يكن يملك كل عناصرها. ولم ييأس وظل مثابرا حتى اكتشفها. كان فيما سبق يتصور العناصر التي تنقصه ولو أنه لم يعان ما عاناه في الليلة الماضية، ولو أن التعب لم يسلبه كل قواه لوقف في وسط قاعة المعرض لبذل جهدا خارقا ولأرغم الحقيقة على أن تنبثق لأنه الساحر الذي يفعل المستحيل. وأحس بأنه على حافة الاكتشاف ولكن التعب والإرهاق والافتقار إلى الراحة، كل ذلك ساعد الحقيقة على أن تتوارى عنه .. ولم يكن هناك أية فائدة في إرغامها.

أخرج رأوول ساعته وأجفل. كانت ساعة العشاء قد أزفت ولم يكن هناك سبيل للنوم، بل على العكس من ذلك كان لابد له أن يظل ساهراً وأن ينتظر منتصف الليل بمزيد من الاهتمام، وأن يكون متأهبا لكل شيء. كان يلجأ في مثل هذه الحالات إلى أسهل الطرق، فيتناول وجبة كاملة ولكن دون ما إفراط. ولحسن الحظ كانت مائدة القصر حافلة بأطيب أنواع الطعام. وعندما سمع الجرس انضم إلى لوسيل في غرفة الطعام. وكان قد استعاد مرحه بجهد أخير من إرادته. ولكي يبدد قلق الفتاة لجأ إلى كل مواهبه كراوية. كان يعرف حق المعرفة كيف يحكي أغرب النوادر وأطرفها وأكثرها إثارة للاهتمام. وكان يكفيه أن يلجأ إلى ذاكرته العجيبة لكي يغذي أشد الأحاديث حدة وغرابة. وكانت لوسيل تنظر إليه بعينين متسقتين وكانت تسأله أحيانا.

- هل حدث لك أنت كل هذا؟

ويرد رأوول: كلا. ليس لي أنا بالذات وإنما لصديق عزيز على جدا.. هل لك في قليل من هذا السمك.. إنه لذيذ.. لأجل خاطري.. واسمحي لي أن أصب لك كأسا أخرى من هذا النبيذ المعتق.

- أرو لي قصة أخرى.

ــ ولكن هل تحسبينني شهر زاد يا بنيتي. حسنا. سأكشف لك أسرار قضية عجيبة أثارت اهتمام الرأي العام. هل سمعت عن مدام إيمبر؟. اعلمي إذن ..

وراحت الساعة الكبيرة تدق الثواني في صوت رتيب مسموع، وبدأت خيوط الليل تتسلل من خلال النوافذ المطلة على البستان. وأضاءت أبولين الثريا، وكانت لوسيل لا تزال مبهورة بما سمعت، وراحت تنظر إلى ذلك الرجل الذي يزعم أنه صحفي وقد دفنت ذقنها بين راحتيها، ناسية الطعام.. كان يبدو لها كأنه شخص آخر لأن المغامرات التي يسردها تجسد كلها نفس الميزة المفرطة التي لا يمكن أن يكون صاحبها صحفي، ولا يمكن أبدا أن تقع لشخص عادي.. كانت على يقين من أن كل تلك المغامرات إنما وقعت له هو ولم تقع لصديق عزيز جدا عليه.

واختتم رأوول حديثه بأن قال: سأتناول الآن فنجانا من القهوة، وأرجو أن تكون قوية جدا يا أبولين.

قالت لوسيل: لماذا تخفي عني هذه الحقيقة ما دام ذلك الصديق العزيز الذي تتحدث عنه لا وجود له.

بدا الارتباك على الصحفي المزعوم وقال: أؤكد لك يا لوسيل.. ولكن ليكن.. لقد غيرت بعض النقاط قليلا، ففي مهنتنا نضطر أحيانا إلى المبالغة لأن القراء يحبون الإثارة.

وجاءت أبولين بصينية ووضعت الفناجين. وقال: قليل من القهوة لا بأس به.. كلا .. هذا أمر مؤسف.

انتظرت لوسيل حتى انصرفت الخادمة ثم سألته فجأة: من أنت؟

ـــ أنا؟ .. ولكن هذا السؤال يا لوسيل؟. كأنك لا تعرفين.. أنا لا أشبه زملائي طبعا، فقد شاء القدر أن أشترك شخصياً في أحداث غريبة كثيرة، ولكن ليس فيها ما يثير دهشتك. مالت رأس لوسيل قليلا، وومضت عيناها..؟ كان يجب أن يخف النبيذ بالماء طبعا.

- من أنت؟

تغير صوتها فجأة، وبدأ أكثر رزانة ووقارا، وشابته مسحة من القلق. ونهض رأوول وانحنى فوقها وقال: تعالى. ستكونين أفضل في المقعد المستطيل.

وعاونها على الوقوف ورافقها حتى الصالون المجاور، يتبعهما بولوكس. وساعدها على الجلوس، وتمتمت تقول: رأسي تدور بي.

- لا تراعى، سوف تكونين على ما يرام.

وتكومت لوسيل حول نفسها، وتداعت يدها اليمنى إلى جانبها كما لو فقدت الحياة: حسنا.. حسنا.

وأحس رأوول بالقلق عليها، وأراد أن يعود لكي يأخذ إبريق القهوة، ولكن الأرض راحت تحيد تحت قدميه في رفق.. وسطع النور في ذهنه فجأة.. المخدر.. إنه خدرنا.. النبيذ.. وأغلق الباب، وبلغ غرفة الطعام وهو يترنح وملأ فنجان القهوة: أبولين.

وخيل له أنه يصرخ ولكن لم تصدر منه غير همسة خافتة. وشرب القهوة جرعة واحدة، من غير سكر. وتنبه ضميره. واعتمد على الجدار،

ومضى إلى المطبخ وهو لا يزال يترنح. كانت أبولين نائمة، وكذلك أشيل وفاليري، وقد تدلت رءوسهم فوق المائدة.. وجرى كل شيء تماما كما جرى في الليلة التي تم فيها اختطاف برناردان.

آه! .. يا للوغد! إن يجب أن.. ولكن ما كان في مقدوره إلا في النبيذ.

وبدأت أفكاره تختلط، وبذل جهدا خارقا لكي يعود إلى غرفة الطعام. كانت الساعة تشير إلى التاسعة.

– بعد ثلاث ساعات .. بعد ثلاث ساعات.

وراح يتشبث بهذه الكلمات. كان يعرف أنه لابد أن يقع شيء ما بعد ثلاث ساعات، ولكنه لم يكن يعرف طبيعة هذا الشيء. ومد ذراعه نحو الإبريق، ولكنه لم يصل إليه. وتعلقت أصابعه بالمفرش الذي أنزلق في بطء. وتحطم طبق فوق الأرض. وأيقظه الصوت. لو استطاع أن يمسك بالإبريق وأن يرش وجهه بالماء البارد. ووقع على إحدى ركبتيه، وتحسست أصابعه ثم توقف عن الحركة.

– لا يجب أن أنام.. لا يجب أن أنام.

كان الصوت الذي يدوي في أعماقه قويا عنيفا، وحاول أن يرد:

– لن أنام طبعام.

وتحركت شفتاه، وانهار. وأحس أنه مستلق على ظهره.

ليلة الانقلاب الشمسي

راح رأوول يناضل نضال المستميت.. نضال السجين بين جدران أربعة.. كان ينن من وقت لآخر وينشب أظافره في الأرض.

وفجأة تحركت ساقاه كما لو أنه كان يجري، وراح ينطق بكلمات مبهمة لا معنى لها.. وفي مكان ما من أعماق شعوره كان يهتز وميض من الصحو، ثم كف عن الحركة، وأخذ ينادي بصوت رتيب غير معروف: لوسيل .. لوسيل.. وشيئا فشيئا أحس بأن هناك من يتكلم.. ويهمس من بعيد.. «حان الوقت» يجب أن تفتح عينيك.. وعندها سوف تنجو عد من واحد إلى ثلاثة ثم ارفع جفنيك.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. ».

وامتثل لكي يعرف من الذي يتكلم.. وأحاطه من كل جانب صمت ثقيل مطبق.. شيء واحد كان يحتك بوجنتيه ويدغدغه، وبحركة مترددة قام بها أكثر من مرة رفع يده ولمس قماشا لم يعرف ما هو .. ولكنه راح يتحسسه. كان أشبه بغطاء وفوقه مائدة. وكانت مائدة فعلا لأنه لم يلبث أن رأى قوائمها الضخمة. وكان راقدا على الأرض.. ولكن ماذا يفعل فوق الأرض.. هل هو مريض؟ .. أم مصاب؟ . كلا. إنه لا يشعر بأي

ألم.. بل إنه كان يود لو أن يتثاءب كالنائم الذي نحل جسده رقاد طويل.

وراحت الساعة تدق، وجعل يعد دقائقها بحركة آلية. ولكن لم يلبث أن اختلط عليه الأمر. أهي إحدى عشرة دقة أم اثنتي عشرة. وإذا كان الوقت منتصف الليل، فإن هناك شيئا لابد من إنجازه. وسرعان ما فاض به القلق.. هل سبيقى هكذا؟ لا فائدة منه وهو طريح الأرض في حين..

حول ركبتيه.. كان أثقل من الجثة، ومع ذلك فقد أفلح في أن يرقد على صدره وأن يثني ركبته تحته وأن يعتمد على أحد مرقيه. وتفصد جبينه بالعرق. وعندما أصبح على أربع استرد أنفاسه، وعادت إلى ذهنه عبارة فاليري «إن جدي يمشي على السطوح على أربع». وتخيل فجأة الشيخ العجوز وهو في حالة توازن فوق الألواح الإردوازية بصورة مضحكة جدا بحيث راح يضحك حتى أوشك أن يختنق.. الشيخ.. آه.. آه.. كما في السيرك. أي! .. إنني لم أعد أطيق.. وبكى من الفرح. وفي نفس الوقت، وفي أعمق أعماقه كان يعرف أن هذه الضحكة الجنونية إنما هي من تأثير المخدر وأن اللحظة مأساوية وأنه يجب أن ينهض مهما كلفه الأمر وأن يمشي ويتصرف.. وبعد ذلك، وعندئذ غشا عينيه نوع من الضباب.. بعد ذلك سوف يرى شيئا بلا ريب.. شريطة أن يسرع.

وعادت الساعة تدق من جديد في رنين خطير دوى صداه في أرجاء الغرفة، وراح يعد الدقات في تركيز مؤلم. كانت كل دقة تصدر دويا

شديدا في رأسه.. اثنتا عشرة دقة.. لم يخطئ هذه المرة.. وبمعجزة الإرادة ألقى نفسه واقفا معتمدا على المائدة.. وكان إبريق القهوة يكاد يكون في متناول يده. ولم يضيع الوقت في البحث عن فنجان، بل شرب الإبريق في شراهة. وأحس بأنه أصبح أشد ثباتا على قدميه.. لو يستطيع أن يفتح النافذة وأن يستنشق قليلا من الهواء النقي.

ومضى إلى إحدى النوافذ وهو يمشي كالسكران، ووضع جبينه البارد على زجاجها الذي بدا له مثلجا. وقد طاب له ذلك لأنه حس بأن النار التي تضطرم فيه قد هدأت. وفي الخارج، أضاء ضوء القمر الهادئ دنيا مجهولة من الأشباح الغريبة المضيئة والأشكال.. كلا لم تكن أشكالا عجيبة وإنما مجرد أشكال مشوهة لمداخن ودوارات هوائية بدت كما لو كانت رسومات طفل فوق بلاط فناء الشرف .. وكان هناك شيء يتحرك.

حسب رأوول في بادئ الأمر أنه لا يزال يحلم، فإن ذلك المنظر الطبيعي والهندسي والعجيب في نفس الوقت كان أشبه بمنظر من المناظر التي يراها المرء في الكوابيس.. ومع ذلك فقد كان هناك شيء يتحرك حقا.. أهو حيوان! .. واستطال الظل .. كان رجلا دون شك، وكان يمشي في ظل السطح ويتبع الخط الفاصل بين اللونين الأسود والأزرق.. كان يتقدم كالبهلوان. أين كان؟ .. أين كان؟.. فوق، في الشرفة.. أم في الفناء؟.. كان يخطو خطوات واسعة بطيئة كما لو كان

بعد خطواته ثم توقف وجد في مكان بضع ثوان لا يتحرك.

«جدى يمشي فوق السطوح». عرف رأوول بغريزته أنه يرى الشيخ برناردان. كان ذلك أمرا جنونيا ومستحيلا لا يصدقه العقل، إذ كيف يمكن أن يكون هذا الرجل هنا في هذه اللحظة.. في القصر، في حين أنه سجين «الآخر» وانحنى الخيال عندئذ ولمع سلاح في يده. آه.. كان المشهد يدور في الفناء.. وكان هناك رجل.. برناردان أو الشيطان يتأهب للحفر، عند أسفل إحدى الهوائيات.. أو بوجه أصح في آخر ظل إحدى الهوائيات.. في ظل الهوائية التي تمثل الفارس بالذات.. وأزاح رأوول جبينه إلى ناحية أخرى بحثا عن موضع آخر أكثر برودة. كان بحاجة إلى كل حواسه. وساعدته رطوبة الزجاج في أن يجمع شتات أفكاره لأنه بدأ يتجه نحو متاهات الفروض والنظريات.

لم يخطئ عندما افترض وجود مخبا.. وهذا المخبأ وهو المكان الذي يشير إليه حد سيف الفارس في اللحظة التي يخلف فيها القديس جان القديس يعقوب.. أي في منتصف ليل 24 وبداية يوم 25، في اللحظة التي يقع فيها ضوء القمر على نقطة معينة في الرسم المعد للأسطح على أرض فناء الشرف.. ولكن ماذا يكون الحال لو أن الطقس كان مكفهرا أو لو أمطرت السماء.. غير أنه كان مضطرا لقبول شهادة عينيه. والشيء الذي كان يراه في تلك اللحظة هو رجل يحاول نزع

احدى بلاطات الفناء.

فتح رأوول النافذة في هدوء كبير، وعلى الفور سمع صوت احتكاك المعدن بالحجر، ونبهه الفضول والانفعال نهائيا، لم يطعه جسده كما كان يريد بعد، ولكن ذهنه كان يفكر سريعا، ولا يكف عن إلقاء الأسئلة. أهو برناردان الذي دس المخدر في الزجاجات؟. ولكن لماذا؟ وإذا كان قد خلص نفسه بالقوة أو بالحيلة فلماذا لم يعد ويلوذ بالقصر على الفور. ولكن لعله اختبأ في القصر. أين؟ هل هناك ممر سري يمكن استخدامه في الدخول والخروج خفية عن الأنظار؟

وثب رأوول من النافذة في حركة خرقاء. كان الرجل يعمل هناك.. وكان ظل الأسطح يتقهقر بشكل غير ملحوظ كلما ارتفع القمر في كبد السماء. ولم يلبث أن بدا الرجل في النور. كان هو برناردان حقا. وكان منحنيا فوق البلاطة وقد فرغ من انتزاعها من مكانها وظهر شعره الأشيب الذي راح يبرق فوق رأسه كزبد خفيف. وأمسك بالبلاطة ورفعها ثم وضع يده على جنبه وردد حوله. وكان رأوول ملتصقا بالحائط فلم يصدر أية حركة. وجثا الشيخ ودس يده في الحفر.. ما الذي يمكن أن يكون مخبوءا فيها.. صندوق صغير، كلا، فهي حفرة صغيرة مسطحة لا يمكن أن تضم صندوقا.. حقيبة صغيرة إذن.. كلا.. لعل فيها مفتاح.

ولكن لم يكن بها لا مفتاح ولا أي شيء آخر لأن برناردان أخرج يده

وراح ينظر إليها لحظة وهو غير مصدق. وفتش الحفرة مرة أخرى وقد بلغ به الانفعال كل مبلغ واستولى عليه اليأس. وأخيرا رفع رأسه ونظر إلى السماء كأنه يشهدها على الكارثة، وانعكس ضوء القمر على وجهه وحدقتيه المحمومتين وفمه المفتوح على صرخة لا تريد أن تخرج، وفي دفعة واحدة وقع برناردان بجوار الحفرة ولم يتحرك بعد.

ود رأوول لو أن يجري ولكنه لم يستطع أن يتقدم إلا كالمريض فهو لم يكن قد استعاد كل قواه بعد. وكانت ساقاه ضعيفتين مكدودتين. وجثا بدوره أمام الحفرة وأضاء المصباح الذي لا يفارقه. رأى الأرض سوداء رطبة ودودة تتلوى فوقها. كان الشيخ العجوز معتوه، فلم يكن تحت البلاطة أي شيء.

سلط رأوول ضوء مصباحه على وجه الرجل، وما كاد يفعل حتى صعق، فقد راح الرجل المسكين ضحية أزمة قلبية. كانت أمارات الدهشة واليأس مرتسمة على وجهه. وفحص رأوول معصميه وساقيه بحثا عن آثار قيود ولكن كانت كل الظواهر تدل على أن برناردان لم يكن مقيدا على الإطلاق. ولكن من أين أتى إذن؟ وفجأة أدرك رأوول الحقيقة.. لقد دبر «الآخر» أمره وترك أسيره يهرب ثم تبعه وهو على يقين من أنه سيقوده إلى المخبأ رأسا. وعلى ذلك فإن «الآخر» لا يمكن أن يكون بعيدا. وجثا رأوول مكانه وحاول أن يخترق الظلمات التي تتجمع عند الجدران،

كان الظل يتضاءل شيئا فشيئا ولن يلبث القمر أن يمر فوق القصر ويملأ بنوره الفناء كله، فأين يختبئ العدو؟ لا ريب أنه رأى ما حدث وتحقق أن برناردان قد خاب سعيه ولم يجد شيئاً. ولا ريب أنه يدبر الآن خدعة جديدة للاستيلاء على الشيء الذي كان يرجو الحصول عليه.

حملت هذه الفكرة رأوول على آفاق جديدة. وراح ذهنه يعمل الآن بكل سرعة، فقد ضاعف المخدر من قوة ذهنه وإن كان لا يزال يستعيد جسده. لم يكن هناك أي شيء. خبأ بعضهم شيئا ما تحت بلاطة في منتصف ليل 24 يونية.. في ليلة كان قمرها بدرا، وفي ذلك الوقت وضع تلك العبارة: القديس جان يخلف القديس يعقوب ودارتنيان يفوز بالثروة والمجد بحد السيف.. كان المفروض أن تكون تلك العبارة نوعا من الشفرة للاهتداء في ما بعد إلى مكان الشيء المخبوء. ولكن ممن أخذ برناردان تلك العبارة السحرية؟ .. من أبيه طبعا.. من ذلك الإيفاريست الذي كان لابد موجودا في الوقت الذي تم فيه اختيار المخبأ، لأن الأمر يرجع طبعا إلى وقت بعيد.. إلى الكونت يونرفيل، آخر أفراد الأسرة.. إلى ذلك الوقت الذي لجأ فيه الملك لويس فيليب إلى القصر.. من الذي رافق الملك إلى إخفاء الشيء في مكان معين، أي تحت بلاطة الفناء، فإن الملك رأى في آخر لحظة أن من التهور أن يأخذ الشيء معه في المنفى فعاد إلى القصر وعهد به إلى الكونت يونرفيل، وكان يعرف

أمانه وإخلاصه لقضيته. ووضع الكونت بمساعدة إيفاريست ذلك الشيء في مكان أمين. ولكن لا ريب أن ذلك الشيء ثمين جدا بحيث يغامر الملك ويؤجل سفره ويعود إلى القصر متحديا كل الأخطار.

وكان رأوول لا يزال جاثيا على ركبتيه، وانتابه إحساس بأنه تحول إلى تمثال حجري. ولكنه كان مستغرقا جدا في التفكير بحيث لم يخطر له أن يتحرك، لأنه رأى عيبا في تحليله.. حفرة.. خطأ عظيم.. لقد هرب الملك ليلة 2 مارس وانتظر الكونت أربعة أشهر لكي يدفن الشيء، فلماذا هذا الانتظار؟ .. يمكن تفسيره عند الضرورة بأن الكونت كان يرجو أن يعود لويس فيليب سريعا فيرد له الأمانة. ولكن مع مرور الوقت تلاشى الأمل فبحث عن مخبأ أمين. ولكن كيف يعتمد على نظرية غير قانونية تستند إلى ضوء القمر للاستدلال على بلاطة معينة بين غيرها من البلاط. لم يكن الكونت رجلا جاهلا، ولابد أنه كان يعلم أنه لابد من حسابات معقدة بعد ذلك إذا ما أريد تحديد الموضوع الحقيقي الذي يقع عليه خيال الفارس في ليلة 24 يونية سنة 1848م. ولكن ماذا يكون الحال لو أن عاصفة تهب وتتسبب في وقوع دوارة الهواء؟ .. كلا. كان من المستحيل اخفاء شيء ثمين كهذا بمثل هذه السذاجة.

وقال رأوول يحدث نفسه: فلنمض في التفكير.. لنفرض أنني أنا الكونت يونرفيل وأنني تسلمت وديعة يتمسك بها الملك تمسكه بحياته

وأنني سأخفيها كما لو كانت حقيبة عادية بها مبلغ من المال، تحت بلاطة معرضة لكل تقلبات الجو.. آه .. سوف أتظاهر بذلك ولا شيء أكثر. سأجعل وكيلي المخلص شاهدا وسأخلق أثرا كاذبا كيفما يكون ثم أسترد الشيء خفية عن إيفاريست وأضعه في مكان آخر بعيدا عن متناول الجميع والمدهش أن هذا الاحتياط كان له أثره فإن إيفاريست ذكر لابنه العبارة التي لا فائدة منها، واحتفظ هذا الأخير بها بكل ورع وتقوى وأقام من نفسه حارسا على شيء لم يعد موجودا في مكانه.. شيء سيحاول مجرم شرير الحصول عليه فيما بعد. وقد مات المسكين في سبيل لا شيء.. نعم.. ولكن الكونت، وقد كان يفكر في كل شيء، وله الحق في افتراض ذلك على الأقل، أراد أن يطمئن مليكه وأن يكشف له عن الإجراءات التي اتخذها.. وهذا ما لم يكن يفوتني، أنا لوبين، أن أفعله.. طبعا.. لقد أصبح كل شيء واضحا.. لقد رد عليه الملك.. الخطاب.. الخطاب المخبوء في التوراة.. طابع الملكة فيكتوريا.. وعندما مات الكونت ورث إيفاريست ذلك الخطاب وأخفاه في توراته بكل حرص وعناية، ووقع الخطاب الثمين في أيدي برناردان بعد موت أبيه.. ولكن هذا الخطاب.. رد الملك.. علام يحتوي؟ .. الشكر طبعا.. ولكن ربما يحتوي أيضا..

تسارعت نبضات رأوول وراح الدم يغلي في عروقه.. فقد أدى به تعليله إلى زقاق مسدود.. كلا. إن رد الملك لا يمكن أن يحتوي

على مفتاح السر بوضوح؟ .. كان هذا بديهيا، تماما كما هو الحال في مذكرات الكونت يونرفيل. والدليل على ذلك أن البارون اختطف برناردان وأن المذكرات والخطاب كانا تحت يديه وأنه فشل. إن السر مصان تماما، ولهذا فشل برنادران هو الآخر. وعاد رأوول يقول: فشل برناردان.. ولكن حذار.. وريث الملك الآن هو أنا.

آه. لو يستطيع أن يسترد طاقته ونشاطه وأن يفكر بروية كما يفعل دائما. ولكن المخدر يشل قواه وصداع شديد بدأ يشدد الضغط حول رأسه. ومع ذلك فلابد له من التركيز ومن متابعة تحليلاته.. البارون؟.. كيف علم البارون بالسر؟ .. هذا سؤال لا رد له في الوقت الحالي. ولكن هناك سؤالا آخر من المهم أن يجد له ردا.. كيف تمكن الشيخ العجوز من خداع يقظة حارسه؟ .. تذكر رأوول أنه سبق وألقى على نفسه هذا السؤال وأنه وجد له ردا.. إن الآخر هو الذي مكنه من الفرار بحيلة ما.. ولا شك أنه هو أيضا الذي تركه يأخذ الخطاب.. وفي هذه الحالة فإن الخطاب هنا .. في جيب برناردان.. نعم. لابد أن يكون الخطاب معه.. فإن المنطق يؤكد ذلك، ويكفيه أن يفتشه .. ها هو .. هذه الورقة المطوية.. أضاء رأوول مصباحه.. نعم، لقد ربح .. فهذا هو الخطاب في الواقع.

وقف وهو يغالب آلامه، وانتابه دوار جعله يترنح.. وألقى حوله نظرة شاردة. كان الظل يتراجع باستمرار. وبقاؤه أكثر من ذلك في هذا الفناء

الذي يسطع بالنور تهور كبير. ولكن ساقيه خذلتاه ولم يستطع أن يتحرك، وراح يتنفس في بطء وهو على وشك الإغماء، وجمع قواه في محاولة أخيرة وسلط شعاع مصباحه على الخطاب. وعرف الطابع الأزرق الذي يتنافس هواة جمع الطوابع في سبيل الحصول عليه، وأخرج من المظروف ورقة فتحها ورأى التاريخ: أول يونية سنة 1848م.

وعرف أنه أصاب في تخمينه.

عزيزي يونرفيل

في المصائب التي تتوالى علي أجد عزائي ورجائي في أمانتك وإخلاصك، فكيف أفقد شجاعتي وقد تركت خلفي رفقاء سلاح بمثل هذا الوفاء. ولا أظنني بحاجة لأن أقول لك إنني أوافقك على كل الإجراءات التي اتخذتها، فهي إجراءات صحيحة ومضمونة، فإن المجنون بإشرافه على المعرض يحرس قدرا عظيما، وهأنت ترى أنني فهمت وأنني ما زلت أستمد من ذكائك القوة لكي أبتسم.

إن امتناني لك عظيم ومودتي لك منذ وقت طويل كما تعرف. وليتولاك الله برعاتيه وليحفظ يونرفيل إلى الأبد.

لويس فيليب

حاشية: لن أنسى الخدمات التي أسداها وكيلك لقضيتي.

طوى لوبين الخطاب ووضعه في جيبه: «المجنون بإشرافه على

المعرض يحرس قدرا عظيما.. » هذه العبارة هي الشفرة التي يكمن فيها مفتاح السر طبعا.. لقد شرح الكونت لمولاه الإجراءات التي اتخذها لكي يودع الأمانة مكانا أمينا، وعلى ذلك فإن إشارة الملك كانت واضحة ودقيقة وداعية لطرب ذلك الذي كان يعرف السر ولكنها تظل مستغلقة لأي شخص آخر .. ولكن المجنون.. أين المجنون.

زمجر رأوول: المجنون هو أنا.

وخذلته ساقاه، وهوى فوق جثة العجوز برناردان ولم يفقد وعيه تماما. وإنما تاه ذهنه المرهق في متاهات غامضة، ومن وقت لآخر كانت تمر بذهنه عبارة غامضة: إنه وضع كمية كبيرة من المخدر.. فإن مثل هذا التعب ليس طبيعيا. لا تتحرك.. خذ نفسا طويلا .. سوف تعود إليك قواك. وخيل له فجأة أن جثة العجوز تتحرك تحته. وانتزع الرعب منه أنينا خافتا.. ما الذي يجري؟.. من الذي يدفعه جانبا؟

«الآخر» .. «الآخر» .. إنه هنا.. يمكنه أن يتصرف في فريسته. كانت يداه الخفيفتان تجريان وتجريان.. ولكنهما كانتا لا تبحثان عن عنقه.. كانتا لا تحاولان خنقه.. وإنما جاءتا للسرقة.. لسرقة الخطاب.. آه. لو أن يفتح عينيه.. مجرد لحظة خاطفة لكي يرى العدو فحسب.

جهد آخر.. جهد أخير.. كان رأوول مستلقيا على ظهره، والسماء فوقه تنبض بالهجوم، وفي مكان ما قدم خفيفة تبعد.. وتلاشى الضعف، وبدأت

عضلاته تطيعه، وتدحرج حول نفسه، ورأى وعيناه على مستوى الأرض شخصا يمضى نحو القصر.. شخصا بدا له ماردا.. الوحش يهم بدخول القصر الهاجع حيث يمكنه أن يفرغ في هدوء من مهمته.. مهمة الموت.

لوسيل. هنا، حيث فشلت إرادة رأوول نجح الحب، فقد وقف وضغط على قبضتيه. لم يضع وقته في التفكير وفي محاولة الجري لأنه لن يستطيع التقدم أكثر من عشر خطوات، ولكن لعله يستطيع أن يمشي. ولكن «الآخر» سيكون قد دخل القصر ويختفي. بقي المسدس. المسدس الضخم الذي أخذه من درج سيد القصر. لماذا لم يستول عليه «الآخر» في نفس الوقت وهو يأخذ الخطاب؟ أيستهين بخصمه إلى هذا الحد؟ سوف يرى.

أخرج رأوول المسدس ورفع ذراعه. بدت قبضة المسدس كبيرة ولكنه ثنى كوعه الأيسر أمام وجهه وضغط ماسورة المسدس على صدره. وصوبه نحو الشبح الذي يوشك أن يغيب في جوف الليل وانطلقت الرصاصة وكان لها دوي شديد، وارتد رأوول إلى الخلف خطوتين، وهناك، بجوار الباب، ترنح الرجل، وتقدم خطوة إلى الأمام ثم وقع على ركبتيه، ولكنه عاد ووقف واختفى داخل القصر.

راح رأوول يمشي في بطء. كانت رأسه لا تزال مملوءة بصخب المسدس. وكانت الأرض تبدو رخوة وغير مستقرة. ولم يكن متأكدا من أنه سيصل إلى القصر ولكن فرحة النصر راحت تجرى بين ضلوعه

لأول مرة منذ وقت طويل وشددت عزمه وبددت تردده. وبلغ المكان الذي وقع فيه الرجل على ركبتيه، ووقع شعاع مصباحه على قطرات من الدم... وظهرت البقع من جديد بعد ذلك مشيرة إلى المكان الذي سار فيه الوحش. ولم يعد أمامه إلا أن يتبع الأثر القاني. وارتقى رأوول البسطة وأغلق الباب بالمزلاج وأدار المفتاح ووضعه في جيبه لكي يقطع على الرجل خط الرجعة. كانت هناك بركة صغيرة من الدم في وسط الردهة، وغيرها في الطريق إلى المطبخ. وبلغ رأوول بابا منخفضا ومحدودبا.. مدخل القبو، ووقف يصغى. وسمع نفسا يلهث في جوف الظلام. وأضاء مصباحه واكتشف عددا من الدرجات وبقعة من الدم.. واستند إلى الحائط وبدا يهبط.

دار السلم حول نفسه. وحاول رأوول أن يضع قدميه على الجزء العريض من الدرجات حتى لا تفلت منه درجة ويقع. وندم لأنه أهمل الأقبية عندما قام بتفتيش القصر، فإن في مقدور الرجل أن ينصب له كمينا رغم إصابته. ولعله يكتم أنفاسه في هذه اللحظة ويقف متأهبا للهجوم. وهبط رأوول بضع درجات أخرى. ورأى أمامه مدخل طرقة. وفجأت وفي آخر الطرقة سمع الحشرجة، وكانت متقطعة تدعو للرثاء. ووضع رأوول قدميه في الطرقة المظلمة، وكان قد أعاد المسدس إلى جيبه لأنه كان بحاجة إلى يديه.. الواحدة لكي يمسك المصباح والأخرى لكي

يتشبث بالجدار لأنه كان لا يزال يحس بأن ساقيه مترخيتان. واستمرت المطاردة.. المحتضر يسبق المريض بقليل، وانتهت الطرقة إلى قاعة رحبة في أحد جانبيها صف من البراميل، وكان الرجل المحتضر يتشبث بالبراميل ويحاول التقدم. وبدت هيئته في غموض في آخر شعاع المص[illegible] يحاول استخدام قواه الأخيرة في الهرب. وأحدثت أنفاسه ال[illegible] جة رهيبة. وصاح رأوول: سلم نفسك.

[illegible] كان قد اختفى وساد الصمت فجأة. وتعثر رأوول في عقبه[illegible]ه وترنح. وسلط ضوء مصباحه بالأرض ورأى بعض قطع الحطب وقد تدحرجت من مكانها، وسار في حذر حتى بلغ البراميل، وفحص المكان قبل أن يخاطر بالتقدم إلى أبعد من ذلك. ورأى بجوار الحائط صناديق قديمة ومعدات وأدوات مختلفة. وسمع أنينا طويلا عند آخر برميل. وقام رأوول بالخطوات الأخيرة وقد وضحت معالم القبو أمامه وتأهب للمعركة الأخيرة.

كان الرجل قد انهار تحت عجلة قديمة لعربة كانت موضوعة في وضع مستقيم بطول الحائط كدفة السفينة. ولم تصدر منه أية حركة ولكنه كان لا يزال يتنفس. ومن تنفسه الصافر أدرك رأوول أنه أصيب في رئته. وانحنى فوقه وأمسكه من كتفه وأداره على ظهره.

برونو!

حارس الكنز

اهتز المصباح في يده ووقف كالمصعوق فترة كانت قصيرة ولكنها بدت له كأنها دهرا. كان ذلك أمرا مستحيلا، غريبا، لا يمكن أن يتقبله المنطق.. برونو في آخر هذا السرداب..

برونو مصاب إصابة قاتلة.. ولكن أية غلطة رهيبة تلك التي أوجدته في طريقه.. وجثا رأوول على ركبتيه وصاح:

برونو.. أي صغيري برونو.. أنت لن تموت.. لن تفعل بي هذا.

تحركت شفتا الشاب، فانحنى رأوول فوقه وسمعه يقول:

- معذرة أيها الزعيم.

ــ ولكن عن أي شيء تعتذر؟ أنت لست مذنبا. لا يمكن أن تكون مذنبا، فأنا الذي خطر له أن يسرق القصر.. أنا الذي دبرت كل شيء.. لم تكن تعلم أكثر مني، بل كنت تعلم أقل مني بكثير.. إذن؟ لقد أمرتك أن تعود إلى باريس بعد اختطاف العجوز، فلماذا عصيتني؟.. وماذا تفعل

هنا؟ .. لماذا أخذت الخطاب؟ .. من الذي أطلعك؟

أمسك رأوول عن الكلام فجأة، فقد انبثقت الحقيقة في ذهنه كالنار.. وكانت نارا انتشرت في كل مكان ملقية على القضية نيرانا ملتهبة تختلط بها ظلال كبيرة متحركة. وأراد برونو أن ينهض:

ــ لا تتحرك. إنني أعرف الآن .. أعرف.. برناردان هو الذي أطلعك طبعا.. صه. ما أغباني. إنك عالجته أياما وشفيته. وانتهى به الأمر إلى أن اعترف لك وأفضى إليك بكل شيء وضمك إلى صفه وقلبك ضدي، خاصة وأنك تدين بالملكية في قرارة نفسك. ومع ذلك فقد كان يجب أن أكون على حذر منك، ووافقته .. فرار لويس فيليب وعودته خفية والوديعة المقدسة. كل هذا أدار رأسك. آه. كم كنت أود أن أراكما معا.. الثائر الملكي القديم والأرستقراطي المفلس.. أفضى إليك بكل شيء، أليس كذلك؟ «لن أنسى الخدمات التي أسداها وكيلك لقضيتي».. إشارة إلى إخلاص آل فوتيريل للملكية، ووسام لهم وتعويذة.. وكنت أنت تصغى .. أوه، كنت تصغى بكل اهتمام لأنك كنت تعلم أن العجوز سيفضي إليك بسره في النهاية.. وهكذا أطلعك على طبيعة السر.. تكلم.. هذه المرة يجب أن تتكلم.

- أطبق برونو عينيه بالموافقة، وانبثق من ركن فمه خيط من الزبد. وثقلت أنفاسه وبدت غريبة. وقال رأوول:

ــ أتوسل إليك. انتهى الأمر بالنسبة لك، ولكنني ما زلت أستطيع أن أمضي حتى النهاية.. إن الأمر يتعلق بسر يتجاوزنا جميعا.. تكلم.. لعله سر يهم فرنسا.. ومثل هذا السر لا يمكن أن يضيع.. تكلم باسم الملك يا برونو.

وأدنى أذنه من شفتي المحتضر: ماذا؟. الدم. الدم مرة أخرى.. ولكن أي دم؟ .. أتوسل إليك يا برونو. جهد آخر، وأغفر لك كل شيء.

طوح برونو برأسه إلى الأمام كما لو كان يطلق نفسه الأخير، وكونت شفتاه كلمة خمنها رأوول أكثر مما سمعها. وكان الانفعال من الشدة والقوة بحيث نهض وراح يمشي جيئة وذهابا. كرجل يحاول أن يتغلب على ألم عظيم. وقال: تقول الماسة الدامية.. هل تعني ماسة سانسي؟.. ولكن هل تعرف ما هي هذه السانسي يا برونو؟ .. إنها ماسة الماسات.. ماسة الأحلام.. كانت ملكا لشارل الجسور.. وجاك الأول، ملك إنجلترا.. ومازاران.. ولويس الرابع عشر، وليوس الخامس عشر.. تلك الماسة التي تدور حولها الأساطير.. وأية أساطير! ألم تجلب النحس على كل الذين وقعت في حوزتهم، وتعرضوا جميعا لأبشع المحن والكوارث بحيث أصبحت تعرف باسم الماسة الدامية.

ــ وبلغ به الانفعال إلى حد أنه لزم الصمت، ولكن ذهنه استمر يعمل .. لويس السادس عشر فوق المقصلة.. ثم اختفاء الجوهرة الثمينة بعد ذلك، ذلك الإختفاء الغامض.. كان يفخر بأنه يعرف عن

ظهر قلب تاريخ الأحجار الكريمة المشهورة، بيد أن ذاكرته خانته هذه المرة، فكل ما كان يعرفه عن سانسي، الماسة الدامية، أنها ظهرت بعد ذلك بين يدي وزير أسباني يدعى جالسيران .. جالسيران.. طبعا.. كل شيء يتضح الآن.. فالبارون حفيد أو ابن حفيد لذلك الوزير الأسباني دون شك.. وبعد موته اشترى شارل العاشر الجوهرة وأصبحت ملكا لخزينة فرنسا من جديد، وهذا هو السبب في أن لويس فيليب أراد أن يضع الجوهرة المشهورة في مكان أمين قبل مغادرته لبلاده، وهذا هو السبب في أن الكونت يونرفيل اتخذ كل تلك الاحتياطات الغريبة، وفي حرص آل فوتيربل البالغ على ما يعتقدون أنه المخبأ. ولا ريب أن سلالة الوزير الأسباني قد ظلت على صلة بالملوك الفرنسيين، ولا ريب أنهم اطلعوا على بعض التفاصيل، وهي تفاصيل كافية لكي تثير فضول وطمع البارون بعد ثلاثة أجيال متعاقبة.

لقد اتضح كل شيء الآن تماما.. كانت الماسة بالنسبة للعجوز برناردان رمز الملكية، وطالما بقيت في يونرفيل فسوف تكون للملك كل الفرص.. سوف تنتهي الجمهورية، ولكن الملكية ستعود حتما من جديد. ولهذا راح يحرص على الكنز كتنين الأساطير، فإذا ما أتى غاضب وأصبح سيدا للقصر ضرب ضربته.. كان هذا هو التفسير الوحيد المعقول.. اختفى المالكان اللذان سبقا جاك فيرانج بطريقة

ماسوية، وكذلك قضى بالموت على جاك فيرانج وزوجته.. جاك فيرانج لأنه أراد إدخال إصلاحات وترميمات كبيرة بالقصر وأوشك أن يقوم بعمل مدنس .. صفوة القول، كل من يعيش في القصر يجب أن يموت.. لوسيل.. هوبير.. المركبة والسلم.. والفونس نفسه، بصفته الوارث الشرعي يجب أن يختفي.

وكان برونو قد أطبق عينيه، وراح رأوول ينظر إليه من غير أن يراه. أعياه كل ما اكتشفه وراح يسب ويلعن الخادم العجوز الذي أجرم أكثر من مرة، ومع ذلك فلم يسعه إلا أن يشعر من نحوه بشعور معقد يشوبه الاحترام والخوف.. فقد كان من بين جميع خصومه أكثرهم نبلا في جنونه. وتمتم يقول: إنني لأرفع قبعتي تحية له ولإخلاصه رغم كل ما فعل.

وانتزعه من تأملاته أنين صادر من برونو فجثا بجواره وجفف بمنديله العرق اللازج الذي التصق بوجه المحتضر وقال:

ــ لا تحاول أن تتكلم. لا داعي لأن تشرح لي، فكل شيء واضح الآن. اعتقدت بتحريرك برناردان واشتراكك معه في تمثيل هذه المهزلة.. فيكتوار المسكينة مكممة وأنت موثق القياد.. بأنه سيعود إلى القصر لا لشيء إلا لاسترداد الماسة، وأنه سيكون من اليسير عليك بعد ذلك أن تسرقها منه .. يا لك من فتى مسكين! .. إنه عاد فعلا إلى القصر لكي ينجز مهمة الموت أولا.. كان غاضبا ويأسا، فقد أثرنا، أنا والبارون، حنقه فراح

يدافع عن نفسه .. واجه الجميع كالخنزير البرى الهائج الذي تكالبت عليه كلاب الصيد. ولا ريب أنه اختفى في بيته فحسب، وكانت حفيدته تأتيه بالطعام. كان يراقبنا، أنا ولوسيل، وسمع حديثنا. وعرف أنني ذاهب إلى بيت ألفونس فيرانج، ووصل إلى كرمة القديس جان ووجد فريسته موثقة القياد في مقعد على استعداد للموت فقتله عمدا بالمسدس الذي أعرته أنت أياه.. لأنك أعرته مسدسا طبعا، أليس كذلك؟

تقلص وجه برونو لفرط الألم، وكان المصباح الملقى على الأرض يرسل نوره إلى السقف ويبين في الظلام هيئة رأوول المنحني وجسد برونو المبهم. وكان صمت القبو ورطوبته أشبه بصمت ورطوبة القبور. وكان برونو يعلم تمام العلم أنه هالك وكان يصغى بكل قواه إلى همس ذلك الذي خانه فإنه بعد أن أعجب به كل الإعجاب أحس أن الزعيم إذا كان يتكلم فذلك لأنه غير حاقد عليه وأنه يستمر في معاملته كشريك وصديق حميم، وأن هذا الصوت سيرافقه حتى عتبة الموت، واستطاب هذا الأمر لأنه بدا له أشبه بالغفران.

واستطرد رأوول يقول: وبعد أن قتل ألفونس فيرانج تبعنا إلى «الصخرة الكبيرة»، ولا ريب أنه شكر السماء التي سلمته أعداءه الواحد بعد الآخر، وقتل البارون وخادمه واستعاد خطاب لويس فيليب الثمين. وأعترف أنني لو كنت مكانه فربما كنت أقدم على ما أقدم عليه. ولما كان

القديس جان يخلف القديس يعقوب فلابد من إخراج الماسة من جوف الأرض لأنها لم تعد في أمان حيث هي ولابد من أخفائها في مكان آخر، وسوف يطلع فاليري على السر فيما بعد. وذات يوم، عندما يعتلي الملك العرش ستعيد إليه السانسي وستكون عندئذ جان دارك جديدة، يا للعجوز المسكين!.. ويدس المخدر في النبيذ عندئذ أو يحمل فاليري على أن تدسه فيه، وفي منتصف الليل يتبع خط ظل السطح كما رأته فاليري يفعل قبل ذلك ويتوقف عند البلاطة التي يشير دارتنيان إليها، ولكنه ينتزعها هذه المرة. وأنت على علم بما يدور طبعا، وتختبئ في مكان تواعد فيه معك ولا تشك يا مسكين أنه ما كان ليتردد في قتلك بكل برود كما قتل الآخرين. ويجد العجوز المخبأ فارغا، فماذا يحدث في رأسه المملوءة بالأوهام.. إنه خادم غير كفء، لم يعرف رغم كل جهده، أن يصون الوديعة المقدسة، ويعصف به الانفعال وينهار جثة هامدة. والبقية يا برونو.. أوه يا برونو.. إن البقية مؤسفة.. لو أنك وثقت بي.

اختلج جسد برونو لفرط الاضطراب وفتح عينيه يقاوم الاختناق. واحتجبت الرؤية عن عينيه، وأخذ رأوول يده وقال:

- أنا هنا يا برونو.

ولكنه أدرك أن المحتضر يريد أن يقول شيئا آخر فرفع رأسه وسمعه يقول: أيها الزعيم .. البوليس .. إنه أخطرهم.

وانبثق الدم من فمه ولوث ذقنه، وتوتر جسده في تشنج أخير. وأرقده رأوول على الأرض في رفق وأغمض عينيه وقال: يا للفتى المسكين.. لم يكن على مستوى المسئولية.. حتى أنا سأجد مشقة كبيرة.

والتقط المصباح وألقى نظرة إلى ساعته. الثالثة.. في أقل من ساعتين سيكون البوليس هنا. إن العجوز برناردان لم يقل كلمته الأخيرة بعد.. ما زال يناضل.. لقد عرف حقيقة خصمه وأبلغ عنه.. ولا ريب أن جانيمار ليس بعيدا الآن.

– هيا يا لوبين.. هذه هي اللحظة التي تثبت فيها أنك الأقوى.

وفتش جيوب برونو بسرعة واستعاد الخطاب وأعاد قراءته من جديد ثم دسه في جيبه وتخطى الجثة التي أمامه بعد أن ألقى إليها نظرة أخيرة.. الماسة طبعا.. لقد أثبتت شهرتها كماسة مجلبة للنحس.

كانت لوسيل لا تزال نائمة في تجويف مقعدها. وبعد أن أوصد الباب الرئيسي للطابق الأرضي صعد إلى الطابق الأول ومضى إلى المعرض. وفي حذر شديد رفع ركن إحدى الستائر واختبأ دقيقة في فتحة النافذة. كانت جثة برناردان لا تزال ممددة في وسط الفناء، ولم يكن هناك أحد. ومع ذلك فإن رأوول لم يلبث أن رأى عن بعد، خارج الباب الحديدي، أشباحا مشبوهة تتحرك، بل إنه رأى نورا ينبعث من مصباح كهربي سرعان ما انطفأ ثم ظل يعبر الشارع. كان جانيمار يبث

رجاله في الأماكن المخصصة للهجوم الأخير الذي سيقع في الساعة المحتومة، بمجرد أن تظهر الشمس في الأفق، ولا ريب أنه أحاط القصر برجال الشرطة والمخبرين بحيث يقيمون صفا لا يمكن اختراقه. وإذ رأى رأوول المعركة وشيكة الوقوع أخذه الحماس والطرب.

زمجر يقول: أظننت أنك تستطيع القبض على بسهولة؟.. يا لك من غر أحمق.. هذا ما سوف نراه، ولكن الماسة أولا.. ما زال أمامي ساعة ونصف بالتمام والكمال لكي أكتشف مكانها.. بل إنني سوف أكتشفه في أقل من ساعة بكثير.. ولكنني وددت أن أعرف من أين أبدأ.

وترك النافذة وأسدل الستار وأضاء الثريا التي تتوسط السقف ثم وقف في وسط الغرفة الواسعة ويداه عند خاصرتيه، وسرعان ما نسي برناردان وبرونو والبوليس. لم يعد غيره نظرة واحدة ثاقبة، وفكرة تجمعت حول نفسها ونشرت طاقة أكثر من المعتاد. وفي بطء كرر العبارة التي كتبها الملك «إن المجنون بإشرافه على المعرض يحرس قدرا عظيما».. إشارة بسيطة طبعا ولا تتضمن أية شفرة، ولكنها إشارة على كل حال. لقد قال الملك في كلمات ظاهرة شيئا خفيا على جانب كبير من الأهمية... لا إيفاريست ولا برناردان ولا حتى البارون استطاعوا أن يفهموا معناها.

قال رأوول: المعرض.. أنا أقف فيه الآن .. ولكن ما الذي يوجد

فيه.. لا شيء غير السجادة.. وماذا أرى فيها عند مستوى قدمي.. فرانسوا الأول وتريبوليه: مضحكه المجنون.

اقترب من السجادة ورفعها وتحسس الحائط الذي يعلوه الغبار في المكان الموازي للموضع الذي يقف فيه تريبوليه مجنون الملك عند امتداد السجادة، ولكنه لم ير أية خشونة ولا أي أثر لمخبأ محفور في الحائط. ومع ذلك فليس هناك أي شك، كان المضحك المجنون يشير بالتأكيد إلى المكان الذي خبئت فيه الماسة، فهو يقف حريص عليها. وجس رأوول بطرف أصبعه القماش الخشن ثم ارتد لكي يشمل المنظر المرسوم على السجادة بنظرة واحدة.. ألا تشير يد تريبوليه إلى نقطة معينة؟.كلا. إنها تربت على عنق كلب بحركة طبيعية تماما تبعد كل فكرة مستترة لا يمكن أن يتعلق الأمر بتريبوليه.. ولكن ربما كان في القاعة مجنون آخر.

بدا رأوول ينظر في اهتمام أكثر عن ذي قبل إلى اللوحات المعلقة على جانبي السجادة ولكن لا.. هذه الرءوس الصارمة وهذه الثياب الخشنة تنتمي إلى قضاة ونبلاء وأساقفة متأملين لا أحد فيها يشبه مجنونا.. إن الرسم ما زال يتهرب منه.

وفي النوافذ كان ضوء القمر يزداد شحوبا..كان يتراجع أمام خيوط النهار. ولا ريب أن جانيمار يتمشى الآن أمام القصر وساعته في يده.

صاح رأوول: اللعنة! .. يجب أن أجد.

وعاد أمام السجادة ورفعها من جديد وراح يهزها. وشدها إليه، يحدوه الأمل في أن يقع شيء. وسمع صوتا خفيفا جعله يجفل، والتفت خلفه فرأى على عتبة الباب جسد لوسيل النحيل. ونسى مشكلته عندئذ وأسرع إليها قائلا: لوسيل.. بماذا تشعرين الآن؟

مدت يديها الطويلتين على وجهها وقالت: لماذا نمت كل هذه المدة؟

- خدرنا جميعا. سأشرح لك فيما بعد. ولكن اعلمي أن الخطر قد زال تماما.

وأحاط كتفي لوسيل بذراعه وجذبها إلى وسط الغرفة وهو يقول: تعالي. إنني أبحث عن مجنون، وليس أمامي غير بضع دقائق الآن لكي أعثر عليه. ولكنك معي الآن يا لوسيل، وهذا يغير كل شيء. أريد أن أحقق معجزة من أجلك.

وغمره انفعال عظيم، وشدد الضغط على كتفي رفيقته وعاد يقول: مجنون. لننظر جيدا. مجنون. يجب أن نجده. كلا. لا تلقى أية أسئلة على وجه الخصوص. أنت معي وهذا يكفي. آه، فهمت. أنت ترينه هذه المرة.

وكانت لوسيل قد بسطت يدها نحو تريبوليه ولكنه قال: كلا. كلا. ليس تريبوليه.. وإنما الآخر.. انظري إلى الملك.. ليس إلى وجهه ولكن تابعي خط الكتف والساعد حتى تصلي إلى يده.. ماذا ستمسك؟. هيا يا

لوسيل.. قليل من الملاحظة.. ماذا يتمسك فوق رقعة الشطرنج.. كلا. ألا تخمنين.. الفيل طبعا.. وسوف تلاحظين إنه لايوجد غير فيل واحد فوق الرقعة لأن خصم الملك خسر فيليه.. هذه المرة وصلنا إلى بغيتنا.

وأخلى لوسيل وأسرع فرفع السجادة واشرأب على طرفي قدميه ومد يده ودق بها على الحائط تحت مكان الفيل على رقعة الشطرنج، ولكن الجدار رد صوتا أصما بدد فرحته، وعاد إلى لوسيل، ولم تكن قد تركت مكانها وقال:

- ومع ذلك فأنا على يقين من أننا نقترب من الغاية.

تمتمت لوسيل: إنني أسمع ضجة في الخارج.

- ليس هذا بشيء.. إنه البوليس.
- البوليس؟
- أجل. وهذا أمر سأشرحه لك أيضا. ولكن لنوجه اهتمامنا الآن إلى المجنون الذي يحرس قدرا عظيما.

وراح يمشي جيئة وذهابا وهو يضرب الأرض بقدمه من وقت لآخر. ورأت لوسيل ذلك الرجل الذي اعتقدت طوال هذه المدة أنه ريشار ديمون يتبدل.. رأت الوجه الذي ينطق بالجهد والانفعال الكبيرين تتلاشى من خلاله شخصية الصحفي الهادئة ويتبدل ويبدو كأنه ينبض بحياة غريبة لا عهد لها به. وعاد إليها ووقف لكي ينظر إليها، وانساب

شعاع باهت من الشمس الوليدة من فرجة الستارة ورسم هالة غريبة حول رأس الفتاة التي وقفت لا تتحرك فوق الأرض ذات المربعات البيضاء والسوداء، وبدت كالملكة في لعبة الشطرنج.. ولكن عم.. لعبة الشطرنج.. ورفع يده إلى عينيه كما لو بهره نور ساطع.

وصاحت تقول وهي شبه مذعورة .. أنت أرسين لوبين!

- اسكتي بالله .. نعم، أنا أرسين لوبين.. ولكن ما الأهمية؟ .. هل ترين هذه القاعة؟ إنها كرقعة شطرنج.

وتناهى إلى سمعيهما، من ناحية البستان صخب مفاجئ فقال: خمس دقائق لتحطيم الباب.. لدي متسع من الوقت.. إنها رقعة شطرنج.. كلا.. توجد بها خانات كثيرة. ولكنني اضطرم، والفضل لك أنت. ماذا يمكن أن يقوم مقام رقعة الشطرنج في هذه القاعة؟

ودار حول نفسه وفرقع بأصبعه وقال: المنصة بالطبع. منصة الموسيقيين.

وأمسك لوسيل من معصمها وجذبها نحو المنصة المرتفعة وصعد الدرجات الثلاث وقال: انظري جيدا .. ثماني خانات من ناحية وثمان من الناحية الأخرى. أربع وستون خانة. الحساب مضبوط. قرأت في أحد الكتب أن أصحاب القصور الكبيرة كانوا يلعبون الشطرنج فيما سبق بقطع حية.. حسنا. نحن واقفان في هذه اللحظة فوق رقعة شطرنج الكونت يونرفيل. هل بدأت تفهميني؟ .. هيا يا لوسيل. ابذلي جهدا

آخر. لا تنظرى إلى هكذا؟ .. ما هذا الحزن الذي في عينيك؟ .. أهو البوليس الذي يثير خوفك؟ هل تعتقدين حقا أنهم سيلقون القبض علي؟

وفي هذه اللحظة دوت ضربات عنيفة على الباب هزت أرجاء البيت، فهز كتفيه واستطرد:

ــ كنت أريد قليلا من الصمت والسكون والتأمل. ولكن من عادة جانيمار أن يفسد كل شيء. إنه رجل فظ فيما بيننا يا لوسيل. بسببه أوشك أن أفقد تأثيري عليك. ولكن لا بأس. لنر الآن يا لوسيل.. هل تعرفين لعبة الشطرنج؟

- كلا.

ودق الأرض بقدمه وقال: أنت لا تعرفين طبعا الشيء المخبوء هنا .. سأقول لك.. ماسة شهيرة أسطورية، لا تساوي ثروة وإنما مائة ثروة.. كنز الملك لويس فيليب.. كنز فرنسا، وبفضلي أنا...

وأخرج مطواة من جيبه وفتحها وانحنى وأدخل نصلها بين الخانتين البيضاء والسوداء، ثم قال: تثبيت عمره أكثر من ستين عاما.. ولكنه عمل غير متقن لا يصدر إلا من الهواة.. إن الكونت لم يكن يجيد البناء.

وانفتح الباب الحديدي للقصر في هذه اللحظة في صوت مدو ووطأت أقدام كثيرة أرض الفناء. وقال رأوول في هدوء.

- أوه.. أوه.. لكنهم ما زالوا بعيدا.. إن الأبواب والمصاريع

رأت الكثير. لا تنزعجي يا لوسيل.. هذه هي اللحظة التي كنت أنتظرها.. المجنون يحرس قدرا عظيما.. انظر.

ودار بنصل مطواته حول البلاطة، ثم وضع ثقله على إحدى حوافها، وتأرجحت البلاطة بضع سنتيمترات وتمكن من انتزاعها أخيرا مكتشفا تحتها حفرة ملساء دس يده فيها وأخرجها وفيها علبة فضية ثقيلة. وعقدت لوسيل ذراعيها فوق صدرها مشدوهة، وارتسم التوسل في عينيها. واعتدل رأوول وتمتم: ماسة سانسي.

وكان في صوته رعشة خفيفة. وفتح العلبة وسرعان ما لمعت ماسة الأحلام في راحته... كانت ماسة كبيرة تنبعث منها آلاف من النيران.

- ماسة سانسي.

وفي الصمت الذي أعقب ذلك سمعا صوت معول يصطدم بباب القصر.. وقال رأوول في رفق: هل تبكين؟

همست لوسيل: إنني أبكي لأنك أتيت خصيصا لكي تسرق هذه الماسة.

وضحك ضحكة عريضة سعيدة وقال: أسرق ماسة سانسي.. أنا؟ ما هذا القول؟..

- إذن لماذا؟

- ولكن لكي أسلمها لمن له الحق يا فتاتي العزيزة... أنت رائعة؟

وضمها إليه في حركة كلها رفق وحنان وقال: لوسيل، لا تصدقي

كل ما يقال عني.. إن لي كل آثام الشباب طبعا.. مثل الجميع.. ولكن ماسة سانسي شيء آخر، فهي ليست ملكا لأحد ولا يحق لأي إنسان أن يلمسها. انظري إليها للمرة الأخيرة.

وأخذ الماسة بين الإبهام والسبابة ورفعها نحو النور.. وتوهجت الماسة كالجمرة. وقال: خمسة قرون من التاريخ.. أحزان كثيرة، وعنف وتعسف ومصائب.. سأروى لك ذات يوم يا لوسيل قصة ماسة سانسي.

التصقت به وسألته: سوف تأتي إذن؟

ــ سآتي طبعا.. وكيف يرقى إليك الشك؟ .. أفلا يجب أن نفرغ من تبويب كل الكتب الموجودة في المكتبة. إن ليونس كتارا لم يفرغ من عمله بعد.. ولكن يجب أن أمضي في الوقت الحالي لكي أبحث عن مكان مأمون.. أرأيت إلى هؤلاء الهمجيين .. إنهم سيحطمون البيت.

وأعاد الماسة إلى العلبة وأحكم إغلاقها ودسها في جيبه.

- لوسيل.. إنني أعدك بشرفي.. سوف تعود السانسي إلى فرنسا غدا.. إلى اللقاء الآن يا لوسيل.. سوف نلتقي قريبا.. أعدك بذلك، فأنت جوهرتي.

ولثم يدي الفتاة بشفتيه ثم رافقها حتى غرفة المكتبة وأجلسها في مقعد وهو يقول: تظاهري بالنوم.. عندما يستجوبك جانيمار فأنت لا تعرفين شيئا، ولم ترى أحدا.. إنك ستستيقظين من نوم عميق.. نامي،

فانني أريد ذلك.

أطبقت عينيها، وعندما فتحتهما بعد ذلك ببضع ثوان كان قد اختفى. وسمعت أقداما ثقيلة ترج السلم رجا في حين راح بولوكس ينبح في الصالون في قوة.

ل الضجة وهو على عتبة القبو فقال: وى! لو أنني تأ قائق .. إلى الحرية الآن.. بما أن برونو كان يحاول الف القبو فلابد أن به ممرا أرشده برناردان إليه.. الممر الذي عاد منه إلى القصر.. الذي استخدمه لويس فيليب.

وهبط الدرجات مسرعا واجتاز السرداب ووقف أمام جثة برونو وحاول أن يديرها. وأحس بمقاومة خفيفة فضاعف ضغطه. ودوى صوت سلاسل في تخانة الجدار ثم وجد جزءا من الجدار نفسه يتحرك وظهرت فتحة اندفع منها تيار بارد من الهواء. وتردد رأوول قليلا وأرهف أذنيه. بدا كأنه صوت التفتيش الأصم يقترب فانحنى وحمل الميت فوق ظهره وهو يقول:

– هلم بنا يا صغيري.. سوف يكون لك قبر يليق بك، ولن يعرف أحدا أبدا أنك خنت صديقك القديم.

الخاتمة

أقبل الخادم مذعورا وهو يحمل صينية عليها البطاقة. وقال فالنجلاي، رئيس الوزراء السابق وعضو مجلس النواب:

حسنا. ما الخبر؟

وأخذ البطاقة وقرأها وهز حاجبيه، وسأله الخادم: هل أدعه يدخل؟

طبعا.

وبعد لحظة كان أرسين لوبين يجتاز عتبة مكتب عضو مجلس النواب. ونهذ هذا الأخير وحيا زائره في رفق وقال: تفضل بالجلوس.

قال لوبين: سيدي الرئيس.. سوف أوجز في حديثي.

وأخرج من جيبه علبة فتحها، وما كاد يفعل حتى ارتد فالنجلاي إلى الخلف كما لو كان قد تلقى ضربة على وجهه. وتأمل الماسة الكبيرة بعينين متسعتين لفرط الدهشة وقال: ما هذا؟

ماسة سانسي.

تمالك فالنجلاي روعة وقال: ماسة سانسي؟ .. أتعني تلك التي كانت ملكا للتاج والتي...

هي بالذات.

ولماذا تأتيني أنا بها؟

إنني أقدمها لك.

عاد فالنجلاي إلى مكتبه وجلس ثم قال: أين وجدتها؟

لا أهمية لهذا. إنها الآن ملك فرنسا، وأنا أعتمد عليك يا سيدي الرئيس لكي تقوم بالإجراءات اللازمة.

تأمل فالنجلاي هذا الرجل العجيب الذي أتاه من العدم وأعطاه كنزا، وقال بين الجد والهزل:

إنني أقدر الهدية، ولكنني أتساءل إذا كان يجب أن أقبلها. لا يمكن أن تنسى سمعة هذه الماسة، فأنت تعرف أنها تجلب النحس، ولهذا ترى حجم المسئولية التي تلقيها على عاتقي.

لم أكن أعتقد أنك تؤمن بالخرافات يا سيدي الرئيس. ولكن ماذا؟ .. هل تخشى أن يقع زلزال يدمر فرنسا أو أن يجرفها فيضان؟

وساد صمت. وقال فالنجلاي أخيرا: حسنا. إنني أقبل المخاطرة.. ولكن ماذا أستطيع من أجلك مقابل هذا يا مسيو.

- رأوول دابنياك.. أرجو معذرتك يا سيدي الرئيس فقد

استخدمت بطاقة قديمة. إن أرسين لوبين قد مات.

- لو أنني كنت في شك من ذلك فقد تأكدت منه صباح اليوم.

وبسط فالنجلاي يده فوضع لوبين فيها العلبة وقال: أتمنى أن يضع المفتش جانيمار نهاية لتحرياته وأن تصدر إليه الأوامر بالكف عن ذلك وأن يزود بتعليمات جديدة، فالمفروض أنني بحاجة إلى السلام والنسيان.

وانحنى وأردف كمن يبوح بسر: إنني بحاجة إلى أن أكون سعيدا.

قال فالنجلاي: سوف أحرص على ذلك.

ونهض الرجلان. وتبادل كل منهما النظر لحظة وجيزة ثم تنهد عضو مجلس النواب وقال: وا أسفاه!.. لو شئت يا مسيو دابنياك لاستطعت أن تقدم لنا أجل الخدمات.

وخفض عينيه وراح يحلم لحظة ثم قال: آه. ولكن لا داعي للأسف. إنني أشكرك باسم فرنسا.. سيعرف أولو الأمر ما فعلت.

وتملكه الانفعال رغم تشككه كبرلماني قديم شهد الكثير من المعارك السياسية والفضائح وعدم الوفاء بالوعود، وقال مرة أخرى:

- شكرا... اسمح لي أن أصافحك.

***

أوقف لوبين سيارة أجرة وخاطب السائق قائلا: إلى محطة سان لازار.